المجنـون

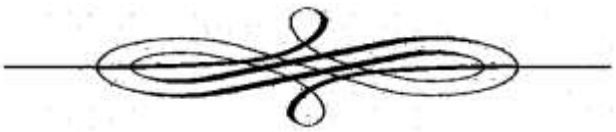

مجموعة قصصية

عنـــوان الكتاب: المجنون

اســــم المـؤلف: علي حزين

التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية

رقـم الإيــــــداع: 25166 / 2021

الترقيـــم الدولي: 8 - 245 - 998 - 977 – 978

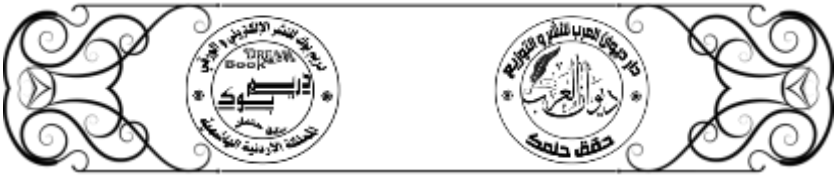

التدقيــق اللغـوي: د. هبة ماردين　　**تـصميـم الغلاف: محمد وجيـــه**

التنسيق الداخلي: محمد وجـيــه　　**رقـــــم الطبعة: الطبعة الأولــى**

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع ـ مصر ـ بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو النـاشر.

المجنون

مجموعة قصصية

علي حزين

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقق حلمك

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى تلك القلوب الطيبة الرهيفة التي لا تعرف إلا الحب والعطاء بلا حدود،
إلى الأرواح الصافية النقية الجميلة الساكنة فينا والتي تتوق لفجر جديد،
إلى الفقراء البسطاء الكادحين المهمشين في الأرض، والمعذبين في الحياة،
إلى الحالمين بالدفء في الشتاء، ....
إلى المرأة التي بحثت عنها عمري كله فلم أجدها إلا في خيالي ،
إلى أبنائي الأعزاء شكراً لكم على كل ما فعلتموه معي وسيرد لكم حتماً في يوم من الأيام ...
إلى كل امرأة خدعتني باسم الحب، إلى كل امرأة مرت يوماً في حياتي وهي كاذبة ، خادعة، آسف جداً على عمري الذي ضاع معها هباء.....
إلى قرائي الأعزاء، وإلى كل الناس، أحبكم جميعاً ، وإن لم تلتقِ الوجوه ...

علي حزين

٣٧ / ١٠ / ٢٠٢١

****

قصة قصيرة

نتوءات

عندما قامت من نومها.. وقفت أمام المرآة.. بعدما خرجت من الحمام.. كالعادة بشكيرها على رأسها.. لكنها لم تدندن بالغناء مثل كل يوم، برغم جمال الطقس.. والجو الرائع البديع، والشّمس تطل من كل النوافذ، وتمرح خيوطها الذهبية في المكان.. وقفت تهيّئ نفسها قبل الخروج.. نظرت في وجهها.. فاكتشفت بأن هناك خطوطاً بدأت تظهر على وجهها، تجاعيد صغيرة، نتوءات، راحت تظهر بشكل ملحوظ، مسحت وجنتيها بيديها.. ثمَّ شرعت في وضع الطلاء "المكياج" لتخفي عوامل الزمن.. ثمَّ مسحت تحت عينيها الواسعة، التي طالما سحرت بها قلوب، وسلبت بها عقول، لم يبقَ من سحرها إلا القليل، تحسست رقبتها، وذقنها بأناملها الطويلة، تلك الرقبة التي كانت تشبه إبريقاً من الفضة ، راحت هي أيضاً تفقد لمعانها وبريقها، تتأوه وهي تدس يدها في صدرها، تحسس نهدها الصابئ وكأنها تريد أن تسكت تمرده، وصراخه، وتمسح دموعه الشاكية، الباكية ، فرغت من وضع الطلاء، وإعداد وجهها الخمري على المرآة وقد صففت شعرها الناعم، الذي غزاه بعض الشُعيرِات البيضاء، ثمّ قالت: بصوت لا يسمعه غيرها وهي ترتدي باقي ثيابها للخروج:

ـــ دوام الحال من المحال، فسبحان مغير الأحوال.. وسبحان من له الدوام..

كانت زهرة يانعة، وثمرة شهية، ووردة متفتحة بهية، تفوح بالعطر وبالعبير، مبهجة للعيون ، وكانت في مشيتها تتصنع، وفي نظرتها تتدلل، وكان الكل يطلب رضاها، ويخطب ودها، وهواها، ويتمنى لها الرضا لترضى، فكانت تتمنع، وترفض طالب كل ودٍ، وتتمنع على محبيها، والراغبين فيها، والارتباط بها، حتى يأس المعجبون، والمحبون، والمريدون، بعدما تركت في قلوبهم جراحاً عميقة، وغصة في الحلق، ومرارة في الفراق، لا ينسيها الزمن، فهي تبحث عن الحب العذري، والرومنسية التي تراها في المسلسلات الهندية، والتي تقرأها في القصص، والروايات، لذا رفضتهم جميعاً، بما فيهم أنا، حتى لما سألتها ، ذات لقاء بيننا:

ـــ لماذا ترفضين الارتباط بي؟!!

قالت : وهي تضحك.. وقد نظرت نحو الأفق البعيد ..

ـــ لأنك لست فتى أحلامي المنتظر ..!

هكذا كانت تقول ليّ كلما سألتها، ثمّ تضحك مني، وتتركني، وتنصرف، فأنعى حظي، وأتمنى لو لم أكن قد أحببتها، وأتمنى أن لو أنساها، فأنا لست فارس أحلامها المنتظر، ومرت سنين وراءها سنين، تزوجت فيها، وأنجبت، وكبرت، وهي مازالت تنتظر، فارس أحلامها المنتظر، ونسيتها تماماً، أو قل كدت.

حتى كان هذا الصباح، وأنا في طريقي لإحدى المصالح الحكومية، التقيتها في طريقي، تعرفت عليها بصعوبة بالغة، فتاة تناهز الأربعين من عمرها بقليل، ترتدي ثياباً متواضعة جداً، وقد فقدت الكثير من بريقها، ورونقها، وجمالها، وأصابع الزمان أبت إلا أن تعلم عليها، اقتربت مني بخطوات ثقيلة، ضعيفة مترددة، فوقفت أنظر إليها، أتأملها، فخلتها وهي قادمة نحوي، كعجوز في سن الأهرامات، أو كأنها مومياء قامت من مقبرتها تواً، أو فرّت من إحدى المتاحف الدولية، لكنها مازالت تحتفظ بشيء من جمالها، ابتسمتُ لها، وهششت وبششتُ في وجهها، فهي كانت حبي القديم ، لا أنسى ذلك، وإحدى أمنياتي التي لم تتحقق سلمت عليها، وقد وضعت يدها في يدي، وراحت تسألني عن حالي، وأحوالي، وأنا أيضاً سألتها بدوري عن حالها، وعينيَّ تنظر في زرقة عينيها، لأكتشف أني لم أزل مشدوداً نحوها بخيطٍ رفيع، وشيء خفي، برغم طول السنين التي مرت على البعاد، وبرغم الهالات الداكنة التي صنعها الزمن ووضعها تحت عينيها، وبدأت تظهر عليها، فلما رأتني وقد ضعفت أمامها، كما كنت في الماضي ابتسمت لي ابتسامة رقيقة، ثمّ سهمت، تذكرت يدها التي تركتها في يدي، ضغطت عليها برفق، فوجدتها قد فقدت الكثير من نضارتها، ونعومتها، ولينها، وابتسمت لها، ورحت أسألها عن فتى أحلامها..؟

ـــ كيف هو ..؟ وكيف حاله ..؟.. وهل ..؟!!.. وهل ..؟!!

سريعاً قطعتْ حبل أسئلتي الذي ألقيته عليها، لتخبرني بأنها لم تتزوج بعد، وإلى الآن لم يأتِ هذا الفتي المنتظر .؟ وبأن العمر قد مر، وفر من بين يدها، وهي كما هي.. محلك سر؟!!... وبأنها اكتشفت أخيراً بأنها كانت تجري في مكانها، وتنتظر، بل وتبحث عن سراب.. وكيف انتظرته سنين يأتي، ولم يأتِ، وهيهات هيهات أن يأتي، فالعمر مر سريعاً وفر، وانسل شبابها، وجمالها، وفجأة.. سلت يدها من يدي، وهي تقول لي: بنبرة كلها ألم، وحزن السنين الخوالي.

ـــ كنت محقاً. وأنا كنت مخطئة في حقك، سامحني

ـــ .....

سهمت قليلًا، وشردت طويلًا، وسرحت بعقلها، وراحت تسترجع أيام الصبا، وأيام كانت تمشي، وتقول "يا أرض اتهدي ما عليكِ قدي" وهي تمشي في الشارع، فيمشي خلفها طابور من المعجبين، وكانت تطربها كلمات المدح، والثناء عليها، وعلى جمالها الفتان، فتشعر وكأنها تطير في الهواء، فتصدم رأسها بالنجوم، والكواكب الشهباء، وتذكرت كيف كانت تتعمد أن ترتدي الفساتين التي تبرز كل تفاصيل الجسد، الساحر، بكل هضابه ومنحنياته ومرتفعاته، حتى تجعل كل من يراها لا يستطيع أن يقاوم جمالها،

ولا يمكن تحول عينيه عنها، مهما كان من هو، ومهما بلغ من التحفظ، والوقار، كانت بنظرة واحدة من عيناها كفيلة لتجعله يلقي كل أسلحته، ويستسلم، فإن استعصى عليها ألقت إليه مع النظرة بسمة تدك كل قلاعه الحصينة، ويلقي كل أسلحته، وما عليه من وقار وحشمة، ويخلع ما عليه من هيبة، وتحفظ، فلا يستطيع المقاومة، ولا الصمود أمام فتنتها الطاغية...

هززت يدي أمام وجهها.. وحتى لا أدعها تطيل شرودها سألتها: ....

ــ من أين جئتِ؟ وإلى أين تذهبين؟

ــ .....

ترجع إلى نفسها.. تضحك، ضحكتها المعتادة، التي فقدت رنين صداها الجميل، وراحت تسرد لي، كيف كانت تفكر فيَّ، وكيف ندمت أشدَّ الندم على عدم الارتباط بي، وكيف في هذا الصباح، داهمها شعور أكيد بأنها ستراني، بالرغم من مرور كل هذه السنين الطويلة ..... و .....و .....

وكنت أستمع إليها، وأنا مشفق عليها وأسير لجوارها ، قلبي معها، وعقلي في مكان آخر، حتى بدت لي البناية الحكومية التي أقصدها، فتذكرت ما خرجت من أجله، وقفت فجأة، أستأذنت منها بلطف، مخبراً لها بأني عليّ أن أقوم بعمل شيء ما هنا، وقد أشرت لها على المكان بيدي، هزت رأسها، ثم ابتسمت، وهي تمد يدها لتودعني بابتسامتها الجميلة، نزعت يدي من يدها، ورحت أعبر الشارع، وأنا أتفادى زحام البشر، والعربات وأنا أفكر فيما سأقوم به بداخل المصلحة، وأيضاً أفكر في طلبات المنزل، وما طلبته

مني أم الأولاد، لأحضره لها معي، وأنا عائد إليها من طلبات المنزل، وظللتُ أقفز وأسير، وهي واقفة تنظر إليّ، وأنا أسير للأمام، ولم أنظر خلفي للوراء مرة أخرى.

الاثنين 11 / 6 / 2018

****

البغل والحمار مع الذئب، والثعلب المكار

يحكى أنه في غابر الأزمان، خلت إحدى الغابات من الأسد ، ولا أحد يعرف لماذا، أو ما السبب.. غير أن الأقاويل كثرت وانتشرت الشائعات انتشار النار في الهشيم قالوا "مات ".. وقالوا .." لم تعجبه أوضاع الغابة، من قلة الماء، وحيوانات "وقالوا " اختلف مع "ابن عرس" لأنه تدخل في غير اختصاصاته، ولم يرجع إليه، ولم يوقره.. وقالوا غير ذلك، لذلك ترك الأسد الغابة.. واعتزل الحيوانات، واستكفى بما لديه من خبرات......

وفي ذات صباح، وعلى عجلٍ اجتمعت الحيوانات في وسط الغابة عند بركة الماء ليناقشوا بينهم الأمر ، فقال واحد منهم

ــ الأمر خطير، وجلل، والغابة أصبحت في خطر، وأي خطر كل ما فيها مهدد بالفناء ، أو الاختفاء ، وصارت مطمع لكل من هب ودب من الغرباء..

وقال الآخر : وهو يعبث بلحيته الكريهة،

ــ إذاً اجمعوا أمركم يا قوم، ورشحوا واحداً من بينكم، لنسد به هذا الخلل..

فتقدم جحش كبير ، من بين الحاضرين، رفس برجليه ، وهز رأسه بيديه، وقال: أنا لها، سأرشح نفسي رئيساً للغابة.. فنظر القوم له بسخرية، وغرابة، وقالوا له ، بعدما هزوا رؤوسهم، وضحكوا منه في سرهم،

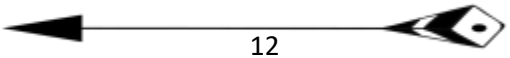

ــ طبعاً هذا من حقك، كما هو من حق جميع من في الغابة، ومن يجد في نفسه القدرة والكفاءة، وصمت الجميع برهة.. وهدأت الغابة، وسكنت، إلا من القرود، والنسانيس.. والشمس كانت تلهو مع أغصان الشجر.. وبركة الماء تعكس الوجوه، والصور.. وأشجار الغابة يتساقط منها الثمر.. والطيور في سماء الغابة تحلق...

ثمّ نصرف الجميع على موعد.. ومرت فترة من الزمن، والغابة فيها كئيبة، ولا يأمن أحداً على نفسه، والكل على أحر من الجمر ينتظر....

وفي يوم أغبر لم تطلع له شمس، تفاجأ الجميع بأن الحمار، قدم نفسه للانتخابات أمام البغل، بعدما نفس ابن عرس سارق الدجاج، في أذن الحمار، وأقنعه بأن يرشح نفسه، فهو على حد زعمه، لا أقل من هذا الجحش المتهور.. وقال له:

ــ لا، لا تدعها له، ورشح نفسك، فأنت أحق بها منه، وأنا معك، وسأدعمك وكبرت في رأس البغل والحمار المسألة، حتى صرّح كلٌّ منهما ذات مرة، وقال:

ــ لا يصلح للغابة رئيساً ، وملكاً إلا أنا "..

وأعلنوا في الغابة عن موعد للانتخابات، وقدم الجحش برنامجه الانتخابي عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وكان مما قال في برنامجه الانتخابي..

ــ أنا سأحترم الجميع، وسأحملهم فوق ظهري، وسأجعل كل سكان الغابة، يعيشون في رغد من العيش، وسعادة يحسدهم الجميع عليها، وسيحلفون بحياتي

وجاء الموعد للتصويت، وفتحت اللجان للانتخابات، ومرت الساعات وراء الساعات، واللجان خاوية على عروشها، فلم يحضر غير بعض الحيوانات، من المنتفعين، والشامتين في الأسد.. وبعضهم حضر على مضض، وبعضهم حضر خوفاً على الغابة من الضياع، وعلى أمل أن تستمر الحياة، ولا يتوقف الصخب في الغابة، إلا أن النصاب لم يكتمل، واختلف الجميع ، والمسؤول عن النظام ، تذمر ، وتململ، حتى قال القائمون على التنظيم ، والنواب عن المسؤولين

ــ النصاب غير قانوني يا جماعة، ويجب تأجيل الانتخابات حتى يكتمل النصاب،

وانصرف الجميع على وعدٍ باللقاء مرة أخرى ،.....

ومرت أسابيع ، وأيام ، والغابة تعيش في سلام ، ووئام ،

وعلم الأسد بالخبر، فلم يعرف أحداً ماذا فعل، ربما فرح، ربما غضب، ربما كان لا يهمه، ولا يعنيه الأمر.. وربما كان ينتظر.. وربما كان في شغلٍ وأمر ..

وجاء يوم الإعادة، وكانت المفاجأة متوقعة وزيادة، لم يحضر أحداً اللّٰهُمَّ إلا بعض الحيوانات، واختلف الجميع مرة ثانية، ودخلوا في مشدات كلامية، بين خذ وهات، وتلك حيل ودسائس ومؤامرات، فقال المسؤولون عن قانون الغابات

ــ يا حضرات قانون الغابة وكل الغابات في حالة عدم وجود الأسد "ملك الغابة" أو في حالة غيابه لأي سبب من الأسباب يترشح أحد الحيوانات، وتجري انتخابات، وفي حالة وعدم اكتمال النصاب، لابد من تعين رئيس بالتزكية من قبل السلطات المختصة، والمختصين بقانون الغابات ، ويحتم علينا استبعاد كلٍّ من المرشحين للانتخابات منعاً للإحراج "

وهنا رفض البغل، ونهق الحمار، ودخلوا مع بعض في حوارات، ومخاصمات لكن جميع الحيوانات وقفوا وصفقوا، وهللوا، ووافقوا على هذا القرار بالإجماع وانتظرت الغابة أياماً، مرت عليهم في خذ وهات، بين حكايات، وروايات، وأخيراً، بعد حواراتٍ، واتصالاتٍ "وحبشتكنات، وبشتكنات " أخيراً استقر الرأي من قبل السلطات على "الذئب" يكون رئيساً للغابة، والثعلب المكار سكرتيراً بالإجماع ، ففرح الجميع وهللوا ، وكبروا، وأقاموا الولائم ، والأفراح والليالي الملاح ، وأمل الجميع فيهما خيراً ،

ودخل "الذئب" عرين الأسد الضرغام ، يقدم قدماً ويؤخر قدم وهو خائف يرتعد، غير مصدق بأنه في عرين الأسد، وراح يضرب أخماساً في أسداس، وهو يقول في نفسه ليشجع نفسه بنفسه..

ــ لماذا أنا خائف، ومن أي شيء أنا أخاف.. وقد أصبحت ملك الغابة، ورئيساً بالإجماع، فإن كان الأسد له أنياب، فأنا لي أنياب، وإن كان الأسد قوي ، فأنا قوي، وإن كان الأسد مفترس، فأنا أيضاً مفترس، وقد اختاروني رئيساً بالإجماع..

ثم أخذ دُشاً ساخناً، ولبس ثيابَ العظمة، وأبرم شاربه، ونظف أنيابة، وسرح شعره، ومسح بأظافره على رأسه.. وجلس في مكان الأسد، ينتظر الوفود الآتية إليه، لتبارك له، وتهنئه، فدخل عليه "الثعلب" المكار في صحبة "ابن عرس" ومعه بعض " الثعالب" ووفود من القرود، والنسانيس ، وديدان الأرض، وراحوا يباركون، ويهنئون، وهو يُثني، ويُطري، ويَنفُخ في الكير، ويعددون له بطولاته وأمجاده " والذئب " فاتحاً أنيابه، في تِكيَته سعيداً، يُحيي جمهوره، ويلوح لهم باليد ، والثعلب المكار في الثناء عليه يزيد، فقام الذئب، واختال في مشيته وتبختر، ليظهر للجميع بما فيهم الثعلب المكار عضلاته وقوته، ثم قال:

ــ اسمع يا سكرتيري العزيز، أنا أريد أن تدير لي الجلسة، ولا تنسَ الأحبة، فقام الثعلب، لف ودار، وبمكره الغدار سريعاً أخذ زمام الحوار ، وقال:

ــ الغابة لم تشهد عهداً كعهد سيدي " الذئب " ولم تشهد رخاءً مثل هذا الرخاء، ألم تروا السماء منذ تولى سيدي الزعامة والخلافة، كل يوم تمطر علينا، وتهلُّ من كلّ الغابات وفودٌ جديدة علينا وهذا اليوم يوم عيد لأنَّا في ضيافة سيدي الزعيم،

وظل يتشدق، ويتقعّر، ساعتان أو يزيد، والذئب ينظر إليه بنصف عين والعين الأخرى على الضيوف، والوفود، وحيوانات الغابة مغلوبة على أمرها، وانتهى اللقاء، بوليمة كبيرة، قدموا فيها بعض العجول، على بعض الحمير، والبغال فأكلوا وشربوا، ثم انصرفوا.....

وباتت الغابة تغلي، وكل من في الغابة يهري، معترضين على ما حدث، وما صار، وما كان." كيف يأكل غيرنا خير جزيرتنا ونحن أبناء الغابة ننام على لحم بطون خاوية أمعاؤنا"

وهنا غضب الجحش، وتقدم للذئب باستفسار في التماس، وطلب الوضوح والشفافية " فغضب الذئب وثار، وكأن برج من عقله فر وطار ، وقال:

ــ الغابة أحسن غابة، الكل عندي سواء كأسنان المشط، وفي العدل الكل عندي سواء، والمساواة في الظلم عدل، والشفافية عندي شيء أساسي ومطلوب، وكل شيء أمامكم سيكون كما وعدتكم، وبعد أن فرغ من كلامه، مع البغل في حضور"ابن عرس" وبعض الحيوانات طلب من سكرتيره، اجتماع طارئ، وفي الحال، وأن يدعو إليه كل حيوانات الغابة..

فقال له الثعلب المكار :

ــــ كما تحب يا ملك الغابة ، مُرْ أمرك مطاع....

فقال له اعقد لي فوراً اجتماعاً، أريد أن ألتقي برعيتي، أريد أن أسمع منهم مطالبهم، وأطلعهم على خطتي، فقال له، وهو يهز رأسه:

ــ سمعاً وطاعة يا مولاي

ثمّ خرج من عنده، بعدما قدم له الثعلب المكار هدية له، الجحش مع الحمار، كان قد جاء بهما إليه بحيلة ماكرة ، بعدما أقنعهما بأن ملك الغابة يريدهما بأن يساعداه في حكم الغابة، وما دروا بأنهما، ليتعشى بهما...

وفي الصباح جاء الثعلب المكار، للذئب، في عرينه ليخبره أن كل شيء تمام التمام ، وكل شيء على ما يرام ، وبأن أهل الغابة ينتظروه على أحر من الجمر، عند بركة الماء.. بجوار فدادين الموز والبرتقال، فحضر الذئب وهو يتهادى في مشيته، يعوي، ويهز ذيله، وكان الكل في انتظاره، في الاجتماع المعتاد، عند البركة، في وسط الغابة.. جلس الجميع، وكان على رؤوسهم الطير، والشمس تختبئ خلف السحاب.. والغابة يكسوها الحزن،

وجلس "الذئب" مكان السبع، وبجواره الثعلب المكار، وهنا فرد أوراقه أمامه، وراح يرغي ويزيد، والكل يستمع له في صمت، وسكون، والكل مغلوب على أمره ، فقد اشترى " الذئب " بعض الحيوانات وأغدق عليهم بسخاء، والبعض الأخر مثل الدود والحشرات ضعيف بطبعه، وانفض المجلس كسابقه، دون أن يفتح واحداً فمه باعتراض، وعاد كلاً على ما كان عليه.

وفي إحدى الليالي الدهماء، أخذ الثعلب المكار، كنز الغابة وهرب، بعدما ضحك على الذئب، ورشاه ببعض الحيوانات في الخفاء.. لكن البغل رآه، فأخبر من في الغابة بما سمع ورأى، فانقسموا على بعضهم بين مؤيد ومعترض. وبات كل فريقٍ منهم يتهم الآخر، ويخوّنه، ويعتب عليه، ويلومه، ودارت بينهم حوارات جانبية، ثنائية، وثلاثية، ورباعية، وابن آوى يسترق السمع إليهم، لينقل لابن عرس ما دار بين الحيوانات، وما كان بينهم من حوار.. واكتشف الجميع من أحد المقربين من الذئب.. بأن الضبع مستاء جداً من الذئب.. لكن لا يستطيع أن يواجهه لوحده.. وطلب منهم بأن

يتحدوا معه.. لأنه اكتشف خيانة هو والثعلب المكار، وبأن الثعلب المكار يتجاهلهم، ويلمع بني جدلته، والغرباء، وعليهم يقدمهم، ولا يلمع سيدهم، وهو من عليهم قدمه، وهذا كان غير منتظر منه..

وهنا رفس البغل، ونهق الحمار، وصرخت القرود بضحكات هستيرية، وطارت العصافير فوق الأغصان، وراحت الشمس تختبئ خلف الجبال، وأقبل الليل، وحلّ الظلام، وخيّم السكون على الغابة، وقبل أن ينصرفوا، اتفقوا جميعاً على عدم السكوت، ومواجهة الأمر ...

وهنا طلب جميع الحيوانات، تقديم مظلمة في مذكرة، يذكر فيها كل الاعتراضات والمخالفات التي حدثت في الغابة، منذ جلس الذئب مكان السبع، والاعتراض على الثعلب المكار، وتقدم الشكوى للذئب الذي استبدلوه بالسبع، عند بركة الماء في وسط الغابة، عند أول بقاء.. وذلك حين يجلس الذئب في عرين السبع...

تمت مساء الثلاثاء 24 / 12 / 2019

****

قصة قصيرة

"البيضة والحجر".... كلاكيت ثاني مرة

هل هناك صلة بين الفلسفة والجنون؟ أو بمعنى آخر.. هل بين الفلسفة وتبني أفكار شاذة وغير منطقية صلة؟ أو بمعنى ثالث.. هل بين الكفر بالثوابت ، والتقاليد ، والأخلاق والفلسفة علاقة؟.....

أنا عن نفسي درست الفلسفة، وتبحرت فيها، وقرأت كل ما جاء فيها، من كفر وإلحاد ، وشك ويقين، وشطحات وإيمان ، وذلك من بداية نشأتها من لدن العصور اليونانية القديمة، ومن بداية "طاليس" مروراً بسقراط، وأفلاطون ، والفلسفة الإسلامية،" ابن سينا، وابن رشد، والفارابي ، والغزالي" وصولاً إلى العصر الحديث، وكان من الممكن أن أفعل مثل ما فعل صديقي، واتخذها وسيلة لكسب المال الحرام، عن طريق الدجل، والنصب، والشعوذة، والضحك على البسطاء، لكني رفضت رفضاً قاطعاً بوازع ديني ليس إلا.. هو فعل ذلك دون وازع، وأخذها سُلماً، ومطيةً، ودِيناً، ومعتقداً، حتى يصل بها إلى أغراضه الدنيئة، درس الفلسفة، وحصل فيها على أعلى الشهادات العلمية، أحبها، وتبنّى أفكارها، وآمن بكثير من الفلاسفة، حتى وصل للشك، أما أنا حدث معي نفس الأمر، درست الفلسفة، وتعمقت فيها، وبالأخص "الميتافيزيقا" البحث فيما ما وراء الطبيعة" وفي "أصل الأشياء"..

ونشأة الكون..... وممَ تكون؟!.. وكيف كان قبل أن يكون"..؟!. وما أصل كل شيء .؟!..الخ.. حتى وقعت في الشك مثله، ولكن الشك الذي وقع فيه ديكارت، والغزالي الشك المنهجي، للوصول إلى الحقيقة واليقين، أما هو فكان شكه، كان مذهب الآخر، الشك من أجل الشك ليس إلا.....

أذكر ذات مرة.. ونحن كنا شباب، ندرس في الجامعة، دار بيننا حوار فلسفي عميق جداً.. أخذ يسألني عدة أسئلة، وأنا بدوري كنت أجيبه على سؤاله بسؤال.. وطال بنا الحوار، واشتد النقاش، واحتد الجدال بيننا واحتدم.. عن أصل الإنسان... والكون... وأين كان العالم قبل أن يوجد؟!.. وما هو العدم.... وهل له حقيقة أم لا... وفي نظرية التناسخ ... ووحدة الوجود... ونظرية الحلول والاتحاد .... وغير ذلك من النظريات القديمة الحديثة.. تلك التي قتلت بحثاً وتمحيصاً.. وفي النهاية رماني في وجهي بحجر، وذلك لما قال لي بأنه.. " لا يؤمن بالله، ولا بدين ، وبأن الدين خرافة، والدين الحقيقي لم يأتِ بعد "...

صُعقت لمّا قال لي ذلك، واحتددت عليه في الحوار، لما تطاول على المقدسات التي نؤمن بها، حتى كدنا نتشابك بالأيدي، وانتهى الحوار بيننا بقطيعة، ظلت أعواماً لا أذكر عددها....

وفي يوم من الأيام.. كنت أسير في طريقي إلى المنزل.. إذ جاء فجأة، وأقبل عليَّ، وفاجأني بالسلام، وبالعناق، والكلام، فرددت عليه، إذ ظننته غير من

أفكاره القديمة، وكان يحمل في يده بعض الكتب، وتحت إبطه برواز كبير، سألته بدافع الفضول.. ومجارات للحديث، إذ لم أجد ما أقوله له..

ـ ما هذه الكتب..؟!

ـ هذه الكتب من فرنسا، وهذه شهادة مبعوثة لي مع طرد الكتب هذا مكتوبة بماء الذهب، وعليها صورتي، وفوقها ختم، وشعار الجمعية. الروحانية الكبيرة التي في فرنسا،

ـ كيف ..؟!.. ولماذا ..؟! .

ـ أنا أرسلت لهم فجعلوني عضوًا معهم ....

ـ أما زلت في غيك القديم ..؟!..

ضحك حتى مال على ظهره ، وقال لي بنبرة ساخرة، ممزوجة بشيء من التعالي. والغطرسة كعادته ...

ـ من منا يا صديقي ، أنا أم أنت ..؟!..

ـ أنت بالطبع .

ـ الذي يُسلّم بالمغالطات ويجعلها ثوابت، أم من يبحث عن الحقيقة .؟ .

ـ أي حقيقة تقصد ، ..؟!!

ـ أنت تفهمني وأظن أنك تعرف أفكاري قبل سابق

ـ لكنها خطأ . كلها خطأ ..

ـ خطأ هههههههه

واتبعها بقهقهات ساخرة مستفزة ، كدت أن أسُدَّ أُذنيّ حتى لا أسمع صوته المنكر لكنه تابع يقول:

ــ يا صديقي عقولنا محشوة بمعلومات خاطئة منذ كنا صغار

ــ ليس كل شيء خطأ

ــ بل كل شيء، ألا ترى أن العقل الذي هو مليء بالمعلومات قد برمجناه بمعلومات خطأ في خطأ ...!!!!

ــ تقصد

ــ نعم الحواس ، أجل يا صديقي، أليست هي التي نكتسب عن طريقها المعلومات، لنرسلها إلى العقل، فتصير معلومات، وتصبح مسلمات وعقائد ثابتة لدينا

ــ لكن هناك حقائق ثابتة بالتأكيد

ــ ليس هناك شيء ثابت، ولا حقيقة ثابتة مطلقاً، إطلاقاً، وإلا أثبت لي ذلك ..

ــ الله ، المقدسات ، الرسل، الكتاب، القيم ، الفضائل ، الأخلاق ، المبادئ

ــ ما هو مسلّم به وحقيقة ثابتة عندك، عند غيرك أمر ليس مسلّماً به قطعاً

ــ هذه سفسطة سمجة ، أحذرك منها

ــ هههههه

ـــ لكن هناك عقل نستطيع أن نميز به بين الأشياء ، العقل هو الميزان والحَكَم بين الحق والباطل ، وبين المعقول واللامعقول

ـ حتى هذا العقل نسبي، ويختلف من شخص لآخر، ومحشو ومبرمج عن طريق الحواس، وسأثبت لك ذلك، كم من السنين ونحن نرى الشمس من بعيد وهي صغيرة كالكرة، لكن أُكتشفَ في هذا العصر بأنها تفوق الأرض بكثير ، والسراب الخادع، وتوهم سماع الأصوات وهي غير موجودة أصلاً وقس على ذلك كل النظريات، والمعادلات العلمية التي اكتشف حديثاً أنها كانت خاطئة ، والأخلاق.. والمبادئ.. الخ.. الخ

ـــ لكن هناك قواعد ثابتة

ـ حتى هذه فيها نظر ، وشك

ولما رأيت بأن الطريق مسدود أمامي في إقناعه ، تركته ، وانصرفت.. دون أن أستأذن منه ، أو أسلم عليه.. فوجدت ضحكته المقززة تلحقني، وصوته يصفعني من الخلف قائلاً:

ـ هروب إذاً يا عزيزي ، كالعادة ، هههههه هههههههه

التفت ، وأنا أنظر إليه شرراً ، قائلاً له:

ـ حين ينقلب الحوار إلى سفسطة، وبلا منطق يصبح الحوار معك بلا جدوى ، وغير مُجدٍ..

وتركته وانصرفت، خطوات قلائل مشيتها، عبرت فيها شرطان السكة الحديد.. وإذ به يذوب وسط الزحام، كفص الملح في الماء، فحمدت الله أن اختفى من وجهي، وبَعُد عن طريقي، فحواره معي دائماً غير مُجدٍ، إضافة على أنه يرفع على الضغط.. أنا أعرف نشأته، والبيئة التي تربى فيها، وميوله النفسية المنحرفة، فهو يحب الشهرة، والمال حباً جماً، وكذلك النساء.. عرفت فيما بعد، من بعض المقربين منه، إنه قطن في المدينة التي أسكن فيها، في إحدى المساكن، وسط حي شعبي، وأصبح له شأن، ومكانة بين الدهماء، والغوغاء، والبسطاء من الناس، وبعض الشخصيات العامة فتنوا به، وبما يصنعه، وصار له مريدين، وأتباع، ومؤمنين بأفكاره، فهو يؤمن بالشعوذة، وبالسحر، وبالكهانة، ويقتني لها كتباً كثيرةً، وأيضاً كتباً في الفلسفة، وعلم النفس، والاجتماع وعن عالم الجن، فهو يؤمن بالجن، وبقدراتهم الخارقة حتى أنه يدعي، بأنه يستطيع بأن يسخر الجن فيما يعجز عنه الإنس، في معرفة الغيب، وشفاء الأمراض، والكشف عن السرقات، وأيضاً القدرة على جعل النساء العاقر تحملنَّ، علاوة على فك السحر، والمربوط، وصنع الأحجبة.. وجعل له ثمناً للذهاب إليه " رُشتا ، أو فيزيته ".....

حاجة كده أشبه بفيلم " البيضة والحجر" الذي قام بتمثيله المرحوم الفنان "أحمد زكي ".. لكن النهاية في الفيلم تختلف تماماً.. فبطل الفيلم أحسن حظاً.. من هذا الداعي الكذاب، فقد انتهى الفيلم ، على البطل ، وهو في رغد من العيش، مع الضحك على الناس، تصاحبه وجاهه في المجتمع ، وحظوة،

ومكانة لدى المسؤولين، بعكس هذا الأفاك الأشر، فقد عمل أول ما تخرج مدرساً للفلسفة، ثمّ تزوج من إحدى السيدات الفضليات، وأنجبت له بنتاً، سرعان ما تنصل منها، ودبت الخلافات بينهما، بسبب غيرته الشديدة عليها، وعدم ثقته فيها، وكثرة اتهامه لها بالباطل، وبان البنت ليست بنته، مما أطرت لرفع قضية عليه، وطلقت منه بالمحكمة، وفُصل من عمله بسبب غيابه المستمر، وانقطاعه عن العمل، مما تدهور به الحال، وأصبح بعد أن كان شبة محترم، ونظيف بعض الشيء، صارت حالته رثة، ورائحته نتنة وعفنة، وأصبح حافي القدمين، يرتدي جلباب متسخة، لا تستطيع أن تميز لونها من شدة الوسخ العالق بها، وإذا ما أمعنت النظر تلاحظ خرقة بالية تحت الثياب، تراه هائماً على وجهه في كل مكان في الطرقات، وفي الحقول الزراعية..

ذات مرة رأيته.. وكنت أبيع كتباً بجوار "مزلقان" المحطة " وإذ به أقبل عليّ، بهيئته الرثة.. وأخذ يمسك بالكتب، يقرأ عناوينها، ويقلب صفحاتها بين يديه، يفركها، يتصفح فيها، وبالأخص الكتب التي تتعلق بالفلسفة ، فقلت في نفسي: " ما الذي حدث معه.. وما باله أصبح هكذا..؟!! ... سأناديه، وسأرى هل سيعرفني أم لا.. " فناديته:

ـــ " يا أحمد "

فالتفت نحوي، وابتسم . ثم قال لي:

ــ أهلاً..

فقلت له:

ــ أما زلت تعرفني، أتذكرني؟!.

صوّب إليّ النظر، وهو يبتسم ابتسامة أعرض من التي سبقت.

ــ وهل يخفى القمر.. طبعاً صديقي، خصمي اللدود

وضحك ضحكته المعتادة.. فسألته عن حاله، وأحواله، وكذا أخباره فقال:

ــ الحمد الله

فضحكت ، فقال لي:

ــ لماذا أنت تضحك

ــ لأنك أخيراً اعترفت بأن الله حق، وبأن هناك إله يُحمد

فضحك ولم يرد عليّ، ثمّ غيب وجهه في أحد الكُتب التي في يده، برهة، سألني عن أسعار الكتب التي في يده، فأخبرته.. فضرب يده في جيبه وأخرج بعض الجنيهات الزهيدة، فأخذتها منه مع أنها ليست كل الثمن. وأخذ الكتب وانصرف، وانقطعت أخباره عني، فكنت أتسقطها من الذين يعرفونه، ومن المقربين منه، وهكذا تكررت بيننا الصدف.

وفي إحدى المرات... فجأة، توقفت عربة "المكروباص" التي كنت أركبها، وأنا عائد من عملي.. وإذ به يخرج من وسط حقول الذرة.. بهيئته الرثة، يفتح الباب، يركب، وبيده سبحة غريبة طويلة ملونة، يجلس بجواري دون أن يشعر بوجودي، أخذ يتمتم ببعض الكلمات الغير مفهومة.. ألتفت إليه، سلمت عليه ، فرد السلام، وذكرني باسمي، فتعجب كل من في العربة، لأنهم يعرفوني جيداً، ويعرفونه أيضاً، فهو بالنسبة لهم نار على علم، وبعد أميال، طلب من السائق، بأن يتوقف، نزل على ناصية أحد الطرق الزراعية، وخاض في الحقول الزراعية وعيون الركاب تلاحقه، وعلامات التعجب، والاستفهام، ملأت عيونهم، ثمّ سألني السائق.

ــ أنت تعرفه من أين؟!!..

فرحت أقص عليه قصته، وقد تعمدت أن أرفع صوتي، لأني لاحظت أن أعين الركاب، وأذانهم كانت معي، وإذ فجأة ، السائق انحرفت يده عن عجلة القيادة ، وكأن أحداً انتزعها من يده، ليهوي بها في الترعة المجاورة.. وكبر وهلل من في العربة، وأنا معهم، وأخذت أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. وكل من في العربة في حالة ذهول، واندهاش لهذا الأمر.. ولما تمكن السائق من العربة، حمد الله تعالى، وسمعته يقول وهو يتنفس الصعداء، ثمّ أخذ نفساً عميقاً وهو يقول:

ــ حاجة غريبة والله دي عمرها ما حصلت معي!..

وطلب مني بأن أتوقف عن سيرة " اللي ما يتسمى " على حد قوله.. حتى نصل بالسلامة ، معللاً ذلك بأنه " مخاوٍ"، وممكن يضرنا، ويؤذينا.. فأخذت أشرح لهم ، وأبين ، بأنه لا يستطيع هو أو غيره ، أن يفعل شيئاً إلا بإذن الله تعالى، وأخذت أذكر لهم الآيات، والأحاديث التي تثبت صدق ما أقول لهم، لكنهم كانوا ينظرون إليَّ وأعينهم مليئة بالخوف ومع ذلك طلبوا مني أن أكف، وأن أتوقف عن الحديث عنه، وبأن أقفل هذا الموضوع ، وأن أفتح موضوعاً آخر... فضحكت في نفسي، ورحت أرخي ظهري للوراء، وأنا آخذ نفساً عميقاً.. وقد سكت، ولم أنطق بعدها ببنت شفة.... والأفكار راحت تتزاحم وتملأ رأسي.. و.....

تمت 22 / 3 / 2018

****

قصة قصيرة

الجدار

منذ ارتفع الجدار الذي بيننا.. وأنا لم أعد أراها.. وهي تنشر الغسيل.. وهي تمشط شعرها الأسود الطويل.. وهي تذاكر.. وهي تطعم الدجاج.. وهي تخبز الخبز .... وهي.... وهي..... وهي.....

سمعتها ذات مرة، وهي في حالة غضب شديد، وكانت ترمي عليّ بالكلام

ــ هي الناس جرى لها إيه في الوجه مرآيه.. وفي القفى هه..!

حولت وجهي بعيداً.. وتظاهرت بأنني منهمك ومشغول في الكتاب الذي في يدي ، ورحت أقلب صفحاته ببطء.. وعملت إني عبيط و"ودن من طين وودن من عجين" واعتبرت أن الكلام لا يخصني من قريب ولا من بعيد ولا يعنيني في شيء.. فافتعلت سعالاً ..أعقبته بكحة، ثمّ بضحكةٍ مائعة في محاولة منها للفت انتباهي.. نظرت إليها بابتسامة باردة لأجاملها ولأحد من غضبها المتطاير.. فبادرتني بتحية الصباح وزرعت على الفور- بين طرقات وجهها الأبيض ــ كم وردة حمراء.. هززت رأسي بابتسامة صفراء، إيماءً لها بالرد.. وقبل أن أعود إلى الكتاب الذي كان في يدي ــ الذي لا أذكر اسمه الآن ــ كانت أسرع مني بسؤالها.. " عن حالي..؟ ... وأخباري..؟ ... وأين كنت منذ زمنٍ طوال ..؟ ... ولماذا لم اسأل عنها ..؟ ... أو أتصل بها طول هذه

المدة ..؟ ..."... وسيل من الأسئلة التي راحت تلقيها على مسامعي.. بالرغم من أنها كانت تعرف أني في الجيش.. إلا أنها سألتني ، ومع ذلك أجبتها بنبرة في طيها ابتسامة فاترة:

ــ " معلهش غصب عني كنت مشغولاً سامحيني "

فتلقفتها لتبني عليها حواراً طويلاً.. إدارته بصوت عالٍ.. وراحت تحكي لي عن أحوالها، والشارع، والمدرسة، والأيام التي كانت تعدها بالساعات والثواني في انتظاري.. وأنا أنظر إليها بإندهاش، متعجباً من جرأتها، وقدرتها على التعبير، ونفسها الطويل في مواصلة الكلام..

"يا لها من فتاة جريئة زيادة عن اللزوم، متحررة.. بالرغم أنها تعيش في مدينة تحتفظ بالتقاليد الموروثة، ووضع فواصل وحدود بين الذكر والأنثى، ضوابط، وقيود.. إلا أنها ألقت بكل هذا وراء ظهرها، وتخلت عنها، بل تحررت تماماً من تلك التقاليد الموروثة.. فتجدها تلبس ما يحلو لها، على أحدث موديل.. وتخرج كما تشاء.. وتعود متى شاءت.. وتتحدث مع من تحب.. وتضحك بلا تحفظ .. فهي منطلقة.. مرحة.. جذابة.. سعيدة بحياتها هكذا.. شعرها قطعة من الليل البهيم.. عيناها فنجانا قهوة فمها حبة فرولة.. جبينها أبيض كالنهار.. عودها عصا خيزران.. تسلب اللب، وتأخذ القلب.. بجمالها الأخاذ الذي لا يقاوم .."

مازالت أذكر جيداً.. يوم طلبت يدها ــ ذات مساء ــ من أمها.. ففرحت ورحبت ، بل وزغردة حينها.. وصرت أراها شبه يومي.. ونشأت بيننا علاقة

حب قوية.. نتواعد ونلتقي بشكل دوري.. نخرج على مرأى ومسمع من الناس.. تتشابك الأيدي على الطريق.. ويبوح كل منا للآخر بما يجول في خاطره.. ويكنه في نفسه.. من مشاعر جميلة جياشة تجاه الآخر.. " أنا كنت صادقاً في مشاعري وعواطفي لأبعد حد.. فقد كنت سعيداً بحبها.. فرحاً بلقائها.. متيماً بجمالها .. مأخوذاً.. ومسحوراً بكلامها البراق.. حتى أني كلما نظرت في عينيها.. انسي كل الدنيا ، والعالم ، والناس.. " ....

أذكر وقتئذ كان عمري لا يتجاوز العشرين ربيعاً.. أما هي فكانت تصغرني بثلاثة أعوام فقط.. لكنّ جسدها كان ينم عن أنوثة طاغية، وفتنة تجعل الحليم حيراناً لا، ولم ،ولن أرى مثلها.. ربما لأني أحبها أقول عنها ذلك أو ربما هي الحقيقة.. أو ربما لشيء آخر لا أدري ما هو.. إلا إني كنت أغار عليها من النسيم لما يمر.. فيداعب خصيلات شعرها الحريري.. ومن أية عيون تراها حتى من نفسي كنت أغار عليها.. وكان يغضبها ذلك مني.. وتصيح في وجهي، وهي تلوح بيدها وتقول:

ــ أنا حرة ، أفعل ما أريد، وألبس كما أشاء .!.. وأتكلم مع من أريد ..!.. وأنت ليس لك عليّ حكم ..! ..؟!! ...

فأتركها ، وأنصرف غاضباً.. وعازماً على هجرها .. وعدم ملاقتها مرة أخرى.. محاولاً نسيانها.. ولكني لا أستطيع.. فأعود إليها مسرعاً.. لأعتذر عمّا بدر مني.. وإن كنت لا أذكر شيئاً يعتذر عنه إلا حبي الشديد لها وغيرتي.. وأقسم لها لترضى بأني لن أعود لمثلها أبداً.. ولن أغضبها ثانية مهما حدث..

وأؤكد لها أني أحبها، ولا أستطيع البعاد عنها وألعن أي شي ممكن أن يبعدنا أو يفرقنا عن بعضنا.. وأعدها بعدم الشك والظن فيها ثانية.. فتبتسم، وترضى عني ونتصافح.. ونتصالح، ونعود من جديد كما كنا.. وقد جرت المياه في مجاريها.. وهكذا دارت الأيام ومرت السنيين بيننا.. وتخرجت أنا من الجامعة.. وهي أخذت الدبلوم.. وأردت أن أكلل مشوار حبنا بالزواج.. وأرادت هي أن تكمل تعليمها في المدينة البعيدة.. لتحصل على شهادة أعلى.. وذهبت إلى هناك.. وانقطعت أخبارها عني.. حتى رأيتها ذات يوم.. طلبت منها أن نتقابل.. فرفضت.. فبحثت عن السبب.. فلم أعرفه إلا من أحد الأصدقاء أخته كانت تدرس معها، في نفس المعهد الذي كانت تدرس فيه قال " بأن أخته أخبرته بأنها ضبطت في إحدى الشقق المفروشة مع بعض الشباب.. فطلبوا أبوها ليمضي على استلامها.. ثم زوجوها لأحد الأشخاص.. الذي ظهر فجأة، وبدون سابق إنذار في شارعنا، والذي لا أعرفه"... ومن حينها.. وأنا لا أقترب منها.. ولا أكلمها.. فقد كشفت الأيام عن حقيقة مشاعرها نحوى ــ إنها كانت مشاعر زائفة ــ فأصبحت بالنسبة لي ماضياً، وذكرى مؤلمة وموجعة.. وبعد أن كانت أحب شيء إلى نفسي.. أصبحت شيئاً بغيضاً إلى نفسي.. وغير مرغوب فيه البتة.. وغير محبب إليّ بالمرة.. لذلك قررت أن أرفع هذا الجدار.. فلم أعد أراها وهي تنشر الغسيل وهي تمشط شعرها الأسود الطويل.. وهي تذاكر.. وهي تطعم الدجاج ... وهي تخبز الخبز ... وهي ... وهي ... وهي ....

قصة قصيرة

المجنون

كنبتٍ شيطاني رأيته، ظهر فجأة في المكان متكوراً تحت الكبرى الجديد، لجواره كومة مغطاة بجوال قديم متسخ بالٍ.. يعلو شعر رأسه التراب الملبد بالعرق والغبار، وحومة من الذباب تحيط به.. ثيابه متسخة مهلهلة، أشعث أغبر رث الثياب والهيئة.. يبدو في العقد الخامس من عمره ، غائر العينين، نحيل العود، أسمر.. تزين وجهه ابتسامة بلهاء، يوزعها على المارة.. وهو يشيح بيده ويطوحها في الهواء وكأنه يدفع عن نفسه شيئاً ما، يجري خلف العربات.. التي تلتهم الشارع بأزيزها وضجيجها الذي لا يتوقف، ولا ينقطع.. يخاطب أُناساً غير موجودين.. ولا يكف عن الابتسامات، والضحكات البلهاء التي يوزعها على المارة هنا وهناك ثم وفجأة، يدخل في كريزة من الضحك الحاد، أرقبه من بعيد يكور قبضته يضرب بها طواحين الهواء بعنف.. ثمّ يدخل في نوبة ضحك هستيرية مرة أخرى. وهو يحدق في اللا شيء.. يرفع رأسه للسماء ، يهزها هزات متتالية، برهة من الزمن، تصدر فيها أصوات غير مفهومة.. وهو يجهش بالبكاء.. ولا يجرؤ أحد على إسكاته، ويداه لا تكفان عن الحركة، ثم يهدأ....

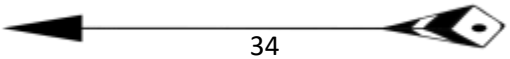

يقف ، ينتفض ، يقفز كالسنجاب المذعور، يصرخ، يجري من غير هدى، في كل اتجاه هنا وهناك كالرمح الطائش.. يستغيث بالمارة لما يرى بعض الصبية قادمين تجاهه وهم يتصايحون عليه ويرمونه بالحجارة.. يدور حول نفسه عدة مرات وهو يرتعد.. ثم يعود إلى مكانه، يقفز، يجلس، يصيح في ذعر شديد كإنسان بدائي.. يجلس القرفصاء يتداخل في نفسه يضع رأسه بين قدميه بعدما يكون قد شبك يده على رأسه، يبكي، يصرخ ، يستنجد بالمارة، وما أن يشتد عليه الضرب والصياح، يقفز كالشمبانزي، والناس تمر في صمت.. مكتفية بإلقاء النظرات غير العابئة أو المكترثة بما يحدث.. يقترب رجل وقور، فوق جبهته زبيبة صلاة كبيرة، يدفع عنه الصبية، يهوشهم بعصاه، يعنفهم، يكل لهم السباب، وأنا معه أعضض من أزره، فيتفرق الصبية عنه، أعود إليه، أربت على كتفه بلطف، أطبطب عليه بعطف يحملق في وجهي وهو مذعور، يشهق في وجهي.. يهرول على غير هدى، وهو يقفز، وهو يبكي.. ويضحك في نفس الوقت، يدور حول نفسه، والصبية قد تجمعوا خلفه من جديد ، يهتفون عليه

ـــ المجنون آهه ..... المجنون آهه .... الـ ....."

ألمحه يجري أمامهم بثيابه الممزقة المتسخة التي تكشف أجزاءً من جسده الأسمر النحيل.. يتجه إلى إحدى الخربات، تلك المباني المهجورة منذ الحرب والتي أصبحت مرمى زبالة يختبئ بداخلها، يجلس وهو خائف.. وهو يرتعش.. ودموعه تتساقط بغزارة على وجنتيه الناتئة فاغراً فاه في صمت،

وهو يلتقط أنفاسه المتلاحقة، فيبدو فمه فارغاً، إلا من بعض الأسنان المتآكلة وجرح صغير غائر ينزف بجبهته، ولحيته الكثة اختلط فيها العرق بالتراب مع الدموع انتظرته ريثما يهدأ وتعود له نفسه، ويتأكد أن الصبية قد انصرفوا بعيداً عنه، فيعود إلى الابتسامة البلهاء، والضحك ، أدنو منه يصافحني ، يعانقني، يقبلني، ويجري من جديد، وأنا أجري خلفه، أحاكيه، أتبعه، أرقبه، أتأمله، وأنا لا أدري لماذا..؟.. ولما كل هذا الاهتمام المتزايد به؟!.. فذاك رجل غريب لا أعرفه..!.. ولا أعرف حتى قصته..؟.. كما أنه لا يعرفني أصلاً..؟!.. بيد أن هناك شيئاً ما لا أدري ما هو يشدني نحوه، ويجعلني أتبعه كظله إن ذهب وأهتم بأمره كثيراً.. وفي أحايين كثيرة أحضر له الطعام، وربما بعض الثياب القديمة التي لم تستخدم كثيراً، وأنا لا أدري لماذا كل هذا الاهتمام، والتفكير في حالته..؟!.. والبحث في كتب علم النفس، والنت عن هذا الأمر.. ربما يكون شعور بالشفقة ربما ..؟!.. أو ربما يكون البحث عن فلسفة العقل والجنون.!!. والعلاقة بين الجنون والإبداع.. أو ربما شيء آخر ..؟!

كثيراً ما قرأت مقالات من هذا النوع لكتاب عظام يشار لهم بالبنان عن الجنون والإبداع...

وعن جنون الإبداع ... وإبداع الجنون ... والفنون جنون ... وهل هناك صلة ما بين الإبداع والجنون...؟ أو ربما يكون هناك شيء من نوع ما يربطني به...؟ وربما سبب آخر خفي لا أعرفه!!. وأريد أن أتعرف عليه..؟.. ما هو لا أدري ..؟!.. كل الذي أدريه أني مُولع بالتفكير في هذا الأمر " الجنون "..

وكنت أقترب من هذا الرجل بحذر، وكل من يعرفني ينصحني ويحذروني من الاقتراب منه.. حتى لا يؤذيني، أو يبهت عليّ كما يحلو لبعضهم أن يقول لي ذلك، أرقبه وهو يَقُمْ الأرض في حيوية ونشاط، ثم يعبئ بها جيوبه تارةً.. وتارة أخرى في حجره المهترئ، وهو يرفع عقيرة صوته بكلمات غير مفهومة وكأنه يغني، أسمع الناس يتكلمون عنه من حين لآخر..

بعضهم يقول:

"بأنه كان دكتور كبير وله صيته وكانت له شنه ورنة، وكشفة بالشيء الفلاني ومن أسرة مرموقة محترمة ومتدينة وغنية وفي أحد الأيام وعلى حين غفلة قام بعقله ــ ربنا يحفظنا ــ وجاء له اللطف "... فيصحح البعض الآخر ويقولون: "لا ، لا.. بل من كثرة العلم مُخه اتلحس فيعترض البعض الآخر ، وهو يكمل الحكاية.. ويقول : " بل لوحده كده نام في الليل فأصبح لقي نفسه يا لطيف اللطف يا رب، وأهله ما سكتوش عليه صرفوا عليه دم قلبهم، فلوس كتير بالكوم، وفي النهاية مثل ما أنت شايف كده سابهم وهرب، وجاء على هنا..." وآخر يقول: وهو يشحط نفساً عميقاً من سيجارته كليوباترا " ولكنهم يأتون إليه من حين لآخر، يأخذوه إلى البيت، يسبحوه،

ويلبسوه، ويوكلوه الحلو كله، ويمكن يحبسوه، وبرضك يغافلهم ويهرب من تاني.. وكل مرة في بلد شكل " .....

لكن هناك من يسمعك ... رواية أخرى عنه تختلف تماماً ...

"مرشد زرعته الحكومة لجمع تحريات عن تلك الجريمة البشعة التي وقعت منذ فترة من أجل كشف غموض الحادث الذي راح ضحيته أسرة بأكملها، أسرة طيبة مسالمة وليس لها عداوات مع أحد.. ولا أحد يعرف من الجاني، مما جعل وكيل النيابة يتعاطف معهم ويزرع هذا الرجل.. ليتسقط الأخبار... حتى يكشف سر الجريمة ... "

هكذا سمعتها تلك الرواية في المقهى المجاور لمحطة القطارات أول البلد في ذات قيلولة..

لكن الرواية الأشهر في القرية.. والتي يكاد يجمع عليها الجميع.. هي قولهم بأنه

"رجل ممسوس ومعاشر تحت الأرض جنية جميلة، لا تظهر إلا له وحده، تزوجها وله منها أولاد يعيشون هناك تحت الأرض.. لذالك هو يكلمهم بكلام لا يسمعه ولا يفهمه غيره "...

ويقسم أحدهم أنه رآه بأم عينه التي سيأكلها الدود ــ على حد قوله ــ وهو عائد من إحدى سهراته الليلية في الجنينة المهجورة التي في آخر البلد مع زوجته وأولاده، وكانت ليلة شتوية والقمر فيها محاق، وبأنه لم يرَ جمالاً أقوى ولا أشدّ من جمال زوجته وأولاده، وكاد أن يقترب منهم ويكلمه لولا

أنها اختفت مع أولادها تحت الأرض، فخشي على نفسه، وفر هارباً ولم يعقب .." ... ومنهم من قال وهو يهمس في أذني....

" زوجته هي السبب، جعلت برج من عقله طار فأصبح يا حوا الله بيكلم نفسه يا ولداه... تزوجها منذ سنوات عدة، فطلعت عين أبوه، وطيرة برج من نفخوه، فتلطش في مخه... إنسانة ــ أعوذ بالله ــ نكد.. وعينها طالة.. مش عايشة عيشة أهلها، وناسها طيبين، وفقراء على الله.. وهي عاملة بنت باشا وبيه.. تطلب منه حاجات فوق طاقته.. وبرغم ضيق ذات اليد، كان يحاول أن يلبي لها كل ما تريد، حتى دفعته لمد الأيدي لي يسوي واللي ما يسواش.. ولما كان يقول لها "إني العين بصيرة واليد قصيرة".. كانت تنكد عليه عيشته، فطلقها ليستريح من وش الدماغ، ونكدها، وقرفها.. فاشتكته في المراكز والمحاكم، ورفعت عليه قضايا متلتلة، إشي نفقة، وإشي قائمة، وإشي مؤخر صداق، وإشي حضانة، وإشي سكن عشان الحضانة ، وإشي نفقة.. وإشي ... وإشي... حتى صار يكلم نفسه وهو ماشي، والناس ليس لديهم سيرة إلا هو وزوجته.. وكلما مر بهم يتغامزون، ويتلامذون، ويتضاحكون، وبخبث يسألونه..: " عملت إيه معك الولية امرأتك، أم العيال... ما هو لو أنت كنت بسطها.. ومديها وجبها وحقها مضبوط ما كانتش عملت معك اللي عملته ده، أنت ما بدلعهاش كتير ولا إيه هههههه .."... مما جعله يتوارى من الناس، ويختفي عن العيون حتى لا تراه ، فينهشونه بألسنةٍ حداد، واختفى فجأة فترة من الزمن، لا يعرف أحداً أين ذهب.. منهم من

قال هرب من الأحكام الصادرة عليه... ومنهم من قال هو في السجن.. وتنسى الناس أمره حتى ظهر فجأة في المكان بعد عشرين عاماً أو يزيد .." .... أرقبهُ وقد اعتلى محطة القطار... يقف على الرصيف... يسلم على الناس والابتسامة العبيطة، لا تفارق تجاعيد وجهه، الذي بدت عليها بصمات الزمن واضحة.. وزحف الشيب على رأسه والشيخوخة على منحنيات وجهه المستطيل، يقف يُحيي الناس بيده ويسلم عليهم، وتارة أخرى يلقي بنفسه في جوف العربات.. ثمّ يقفز من باب العربة الواقفة أمامه.. ويجري وهو يقفز ويضحك، فيضحك بعض الركاب، والبعض الآخر تظهر في عينيهم نظرات الشفقة، وموظفو السكة الحديد يطلبون منه الابتعاد عن القطار حتى لا تنزلق قدمه تحت القطار ، فيضحك لهم ويجري، ولما يصفر القطار، يمسك به عم" صابر "عامل النظافة بالمحطة حتى لا يجري خلف القطار كعادته ، وربما أعطاه كيساً به بقية طعام أحد المسافرين الذي تركه بجواره وصعد القطار لتوه، يطبطب عليه بعدما يأخذه بيده، وينزله تحت المحطة ليتجول في موقف العربات.. والباعة الجائلين الذين يقفون تحت سلم المحطة.. ألمح بائع العصير.. وهو يدفعه بعيداً عنه.. حتى لا يراه أحد الزبائن فيتقزز منه، ويقرف من منظرة، ولا يشرب من عنده بعد ذلك... أما بائع الحلوى يعطيه قطعة من البسبوسة وهو يضحك في وجهه.. ينصرف يقترب من عربة الترمس، تحت الشجرة بجوار المبرد، يمد يده يكبش ملأ يده، وهو يضحك لصاحب العربة.. يصن صنت خفيفة.. وكأنه يفكر في أمر ما

عنا له.. يرمي بالترمس في المتنزه الخلفي.. يمد يده مرة أخرى.. ليقبض على الترمس بيده.. فيصيح في وجهه الرجل.. فيبكي وينصرف وهو يجري.. ثمّ يخالفه ويعود مرة ثانية للمبرد.. يعبث بالماء المتسرب من الحنفيات.. يمسح فمها بجلبابه المتسخ فيبتل يضع فمه في الماء.. يغسل طرف جلبابه.. يأخذ من الماء بيده ويرش على العربات الواقفة.. فيصرخ فيه السائقين.. فيجري أمامهم وهو يقفز ويصرخ، فيتضاحكون عليه، وهم يتظاهرون أنهم يجرون خلفه ....

وفي الليل يأوي إلى كومته.. يعمد إلى ثوبٍ بالٍ.. يكنس به الأرض.. يفرشه ويطويه أكثر من مرة.. يستجدي أحد المارة سيجارة.. فيشيح في وجهه ولا يعطيه.. أنتهز الفرصة أقترب منه أعطيه أنا سيجارة مشتعلة.. أجلس لجواره بحذر، أحاول أن أتكلم معه: " أنت اسمك إيه..؟ ".. يضحك.. فأغير السؤال ..: "طاب أنت من أين ..؟ ".. يحملق فيّ ويعاود الضحك وأنا أعاود سؤاله من جديد ..: " طاب حكايتك إيه.. ؟ ".. يشحط نفساً عميقاً من السيجارة.. وينفخ في وجهي الدخان.. يمد يده إلى دوائر الدخان في محاوله للإمساك بها وهو يضحك.. فأبتسم في وجهه.. أسأله مرة أخرى .." طاب كلمني رد علي ..؟ ".. يضع رأسه بين رجليه.. ويدخل في نوبة من البكاء الحاد، أسمع بعض المارة وهو يقول لي .." ما لك بيه يا أستاذ..؟.. عايز منه إيه ...؟!.. دع الملك للمالك..!!.. وتسيبه في حاله حرام عليك ...؟ ".. أبتسم للرجل الذي نصحني ، ولا أنبس ببنت شفة بعدها، أنسحب في هدوء.. فيشعر بي..

يرفع رأسه يطلب مني سيجارة أخرى فأعطيه، يضع يده في جيبه، يخرج كيساً من الطعام المتداخل، المتشابك يدس قليلاً منه في فمه يمضغه، ويلوكه.. وأنا واقف على رأسه أتأمله، وأفكر.. يمد لي يده بكيس الطعام.. فأهز رأسي شاكراً.. وأنا أبتسم في وجهه.. ثمّ أنصرف ببطء.. والأفكار تعصف برأسي، تسحبني قدماي المتثاقلة، إلى البيت دون أن أدري.. من قابلت في طريقي..؟.. أو من أي طريق عدت..؟.. أو ماذا أكلت اليوم ..؟.. أو ماذا شربت ...؟...

صعدت إلى غرفتي.. وليس في رأسي شيء سوى هذا الرجل الغريب، الذي لا أعرفه.. وطابور من الأسئلة في رأسي يدور "ما الذي جعلني أهتم به هكذا..؟!.. وما الذي جعله هكذا..؟! وهل هو بالفعل كم يقولون عنه أنه مجنون..؟.. وما الجنون..؟.. وكيف يكون..؟.. وما أسبابه.؟ وما الحد الفاصل بين العقل والجنون ..؟.. ولماذا يرفض المجتمع المجانين..؟.. ومن هو المجنون ..؟.. أو ليس من الممكن أن يكون هذا المجنون أعقل من الناس جميعاً...؟!!.. وما مقياس الجنون...؟.. أمن أجل بعض التصرفات الشاذة والغريبة... وغير المألوفة يصير مجنوناً..؟!.. ويحكم عليه الناس بالجنون...؟.. ومَن مِن الناس ليس له تصرفات غير عاقلة، أو مسؤولة ..؟!.. ومن منّا ليس لديه مسحة من الجنون...؟ وأسئلة أخرى كثيرة محيرة.. تقتحم رأسي.. وتلح على عقلي لتعصف به، ولا أجد لها إجابة مقنعة ..؟!.. صنعت كوباً من الكركتيه.. أخرجت بعض من الكتب المتعلقة بالجنون..

قلبت في بعض الصفحات.. ثم طوحت به بعيداً عني.. تملكني القلق، والأرق ... أطفأت المصابيح.. استرخيت على فراشي في محاولة أخيرة في استجداء النوم.. ولكن هيهات، هيهات.. ففكرة الجنون المسيطرة على رأسي.. والحد الفاصل بين الجنون والعقل جعلني لا أنام .....!

****

قصة قصيرة

العقوق

حتى ابني الذي من صلبي.. لم يسأل عني..؟!!.. هو ولا إخوته..؟!!.. وزوجتي المصون هي أيضاً لم تسأل عني..؟! عشرة السنين لم تشفع لي عندها، يا خسارة وألف خسارة ...

تركت لهم البيت، قبل طلوع الشمس بنصف ساعة، وتركت لهم الجمل بما حمل، خرجت وهم نائمون، أنا تعمدت ذلك، حتى لا يستيقظ منهم أحد، فيتشبث بي، ويؤثر عليّ، فأضعف أمامهم، وأحن لهم فأقعد، ولا أغادر، لكن كان عليّ أن أرحل، أغلقت الباب خلفي بإحكام، بعدما أخذت كل ما يلزمني، وفي الخفاء، وفي خلسة انصرفت،

أغلب الناس في الشارع، في هذه الساعة نيام ، كنت حريصاً ألا يراني أحد، حتى لا يمنعني من الرحيل.. تخيلت منظرهم، عندما يستيقظون ويكتشفوا فجأة أني لست على فراشي، وتخيلتهم وهم يبحثون عني في الدار فلا يجدوني، وتخيلت حزنهم الشديد.. و... ومع كل ذلك، وإلى الآن لم يسأل عني أحد ..؟!!..

ها هي الساعة تقترب من الخامسة مساءً.. ولم يدخل جوفي شيء إلا الماء، والشاي، ودخان السجائر، وغبار الطريق، وعادم السيارات المميت...؟!!

أهيم على وجهي في الطرقات؟! من جامع لجامع..! ومن حديقة إلى حديقة! أغيب وأنظر في الجوال " الفون ".. لعلّ وعسى، أحداً رن عليّ ولم أسمعه.. لكن ذهب النهار، والليل أقبل يرخي سدوله، ولم يسأل عني أحد.؟!، وأنا الذي كنت أظن، بل أعتقد اعتقاداً جازماً، بأنهم لا يستطيعون فراقي، بل لا يقدرون عليه دقيقة واحدة، ولا حتى طرفة عين، تباً لكم جميعاً..

ها هي الساعة ترن الخامسة مساءً، ولم يرن علي أحدٌ منهم، ولم يسأل عني ولا واحد، ولو برنة التلفون.. ولم يبحثوا عني،.؟!. ترى لماذا ؟؟!!..لا أدري..؟!!.. هل ماتوا جميعاً.. ؟!!.. أم أنهم لم يزالوا نائمين إلى الآن..؟!!.. ربما يعتقدون أني خارج الدار، لأقضي بعض الطلبات وسأعود ..؟!!.. كما هي عادتي دائماً عندما أجدهم نياماً..؟! أذهب إلى السوق وحدي لأحضر لهم متطلبات البيت من خضار، وفطار، وغيره ..؟!!.. ربما ظنوا ذلك.. نعم ربما.؟!!. أكيد.. أكيد.. لكن أنا من عاداتي لا أتأخر كل هذا الزمن.. ولا كل هذا الوقت خارج البيت..؟!! لا لا..! لابد في الأمر شيء ما.. !..أجل لابد هناك ، ثَمَّ شيء ما جعلهم لا يسألون عني .!! الدقائق والثواني تمر علي بطيئة جداً ، وأنا لا أتحمل كل هذا العذاب..

يا الله.. ولا حتى رنة تلفون إلى الآن؟! ولا أحد فيهم سأل عني..؟!! ولو حتى "كول" رسالة عبر " المسج ".. هههههه آآآه.. أنا بضحك من المرارة... هل هنت عليهم إلى هذه الدرجة..؟!! وإلى هذا الحد يبلغ بهم الكره..؟!! أنا أكرههم جميعاً.. لأنهم لم يسألوا عني.. بما فيهم ابني الصغير، وإن عدت

إليهم على فرض سأوريهم، الذي لم يروه.. سأفعل بهم الأفاعيل.. ولا يلومني فيهم أحد.. فهم لا يحبونني ولا يسألون عني، تباً لهم وألف تب ..

لقد تعبت من المشي، رأيتني تقودني قدماي إلى محطة القطار، كدت ألقي بنفسي في آخر عربة قطار متجه إلى القاهرة ، ولكن تراجعت في اللحظة الأخيرة، عندما تذكرت عملي الذي أعمله، خفت عليه من الضياع، وأنا لا أجيد شيئاً غيره جلست على أحد المقاهي، بجوار السكة الحديد.. تحت شجرة وارفة ظلالها.. جاءني النادل " الجرسون " مسح " التربيزة " الصغيرة التي أمامي.. وهو يقول:

ـ تؤمر بحاجة سيادتك..؟

ــ واحد شاي تقيل سكر بره لو سمحت..

أنا نادر الجلوس على المقاهي.. ولولا الضرورة الملحة ما كنت جلست.. الجوامع مغلقة.. فالوقت ليس وقت صلاة.. أخرجت سيجارة.. أشعلتها.. ورحت أسترجع المشهد كله، للمرة التي لا أعرف عددها، حتى أقف على السبب..

" أنا لما قلت لهم بأني سأتركهم وأرحل.. وأفعل مثل الرجال الذين باعوا كل شيء وهربوا، وضربت لهم الأمثال على ذلك.. وبأنهم سيستيقظون ذات يوم.. فلا يروني فيه..؟!! كنت بهدّد هم ليس إلا.. كنت أريد أن أعرف مدى غلاوتي عندهم.. كنت منتظراً منهم أن يقولوا لي.. " لا تفارقنا ".. " دا حنا من غيرك ولا حاجة ".. و... و ... ومع ذلك صمتوا جميعاً، بل لم يبدوا أي

اعتراض على كلامي هذا، وكأنهم يقرونه، بل يريدون مني الفعل، والرحيل عن البيت..! "تتصوروا ابني الذي ربيته، وكبرته، وعلمته، وصرفت عليه دم قلبي، ولم أبخل عليه بشيء، يعمل في كده..؟!.. ويعمل معي كده..؟!.. يقف قصادي.. يتحداني...؟!!.. بيرد علي كلمة بكلمة..؟!.. وأمه كانت مبسوطة به ، وفرحانة، ولم توبخه، ولم تعنفه، ولا حتى قالت له كلمة..

ــ عيب يا ولد أبوك عيب ..؟!!.. ترد عليه بهذا الشكل ".....

لا، لا، بل واقفت في صفه، كانت في خندقه، ولما لمتها على ذلك.. جابت العيب عندي أنا، تتصوروا.. هههههه آآه ....

ــ أنا ولدي مش غلطان أنت اللي غلطان، ما بتسمعش كلامه ليه ....

ــ هو مين يسمع كلام مين ، أنا ولا هو ...؟؟!!...

ــ فيها إيه لما يقلك هات الكرة ألعب بها شوية.. خربت الدنيا يعني..؟!. كنت أعطيتها له وكسرت الشر

ــ يا وليه الدنيا ليل والكورة تعمل صوت، والجيران نائمة، وأنا لا أتحمل الدوشة وعاوز أرتاح شوية وهو مصمم على الكورة اديلوا الكورة يخبط في البيبان والحطان، ليه ما فيش نهار طالع

ــ أنت الغلطان، اللي وصلته لهذا، بتصرفاتك الرعناء مع الواد ، اتحمل بقى..

ــ معك حق أنا الغلطان وستين غلطان كمان. وأنا اللي وصلته لهذا العقوق، لغاية ما أصبح يرد عليّ كلمة بكلمة، وفي الآخر أخذت جزاتي منك ومن ولدك ..

ــ وأنا مالي، أنت وهو مع بعض، أنا مالي .؟!.. تحشرني وسطيكم ليه.؟!. وبعد كده أنت اللي عليك الاستحمال برضك .!!..

قالتها وتكت عليها، بنبرة فيها تحنين، وتلطف، حتى أهدأ من ثورتي الجامحة.. جلست في مكاني، ورحت أضرب كف بكف، وأنا أفكر في العواقب، وهي قد احتمت بالغرفة المجاورة، فما كان لها أن تقول مثل هذا الكلام، ولا ترفع صوتها عليّ، إلا بعدما تكون حصنت نفسها في إحدى غرف المنزل، وأحكمت رتاجها، أما المحروس بسلامته، كان واقفاً في تحدٍ سافر ليّ، ولا يريد أن ينصرف عن وجهي، أمسكت غضبي، وكظمت غيظي، وضبطت أعصابي حتى لا تنفلت مني، فيحدث ما لم يحمد عقباه، وجلست أهدئ نفسي، فالموقف لا يصلح فيه التهور، والاندفاع، فقط كل ما فعلته معه، منعته من دخول البيت، ثم صعدت إلى غرفتي بالطابق الثاني، فتسلل هو بمساعدة أمه طبعاً إلى الداخل..

أمسكت التلفون نظرت فيه، لعلهم رنوا علي، وأنا لم أسمع ، أو لعلهم بعثوا برسالة ليطمئنوا عليَّ.. كلهم معهم " محاميل" من الغالي، وماركات عالمية.. أنا الذي اشتريتها لهم بفلوسي، الكلاب، ودائماً أجعل لهم فيها رصيداً " شحن " لم أدع تلفون واحد منهم بلا شحن.. ومع ذلك لم يكلف واحد منهم خاطره ، ويرن يتصل، يسأل عني ، أو برسالة رسالة حتى ....

تخيلت أنا الذي مكانهم الآن، هل كنت سأسكت؟!! لا والله، ما كنت أصبر، ولو لدقيقة واحدة، كنت رنيت عليهم ورنيت، ورنيت.. ويمكن كنت

خرجت أدور عليهم بنفسي.. وأردهم إلى البيت.. حدث هذا أكثر من مرة معي، لما يتأخر واحد منهم عن معاده، ولما أبعث أحداً منهم في مشوار.. هذا إن حن وذهب، أو تأخر عن معاده عند الرجوع من المدرسة، أو الدرس، ببقى عامل كالمجنون قلبي مثل الحمامة الطائرة عليهم ، أطلع أبحث وأدور عليهم في كل مكان، ولا أعود إلى البيت حتى أجدهم ، أو يتصلوا بي ويقولوا لي بأنهم عادوا إلى البيت بالسلامة، وأنا يوم كامل خارج البيت، ولا أحد يسأل عني، أو فيه، ولو حتى برنة تلفون... وكأنهم كسروا خلفي قلة، كلاب.. عجبت لك يا زمن..

يضع الجرسون صينية الشاي أمامي، وينصرف، بعدما أشكره، مسكت كوب الماء البارد، لأضعه في جوفي الذي لم يدخل فيه إلا الماء، ودخان السجائر، والشاي " مسحت من عيني دمعة توشك تسقط بيدي ، تذكرت أبي وأمي ، ترحمت عليهما ، أنا لم أكن عاقاً هكذا مع أبي وأمي، أنا كنت باراً بهما إلى آخر لحظة ــ رحمهما الله وأدخلهما فسيح جناته ــ كما أني لست محتاجاً إلى دليل حتى أثبت لكم ذلك، يكفي أقول لكم أنهما، عاشا وماتا راضيين عني، وكانا يدعيان لي بالخير ، والصحة ، والسعادة ، وطول العمر.. إذاً كيف حدث كل هذا العقوق من أبنائي.؟!. عقلي يكاد يجن..؟!!..

وضعت ثلاث ملاعق صغيرة سكر، وأخذت أقلبها في رأسي، صوت العربات من بعيد مزعج ، والحر شديد ، والناس بدأت في الخروج للتنزه، ارتشفت رشفات متتاليات، ورحت أرسل بصري هنا وهناك، لعل وعسى ، أرى

واحداً منهم خرج ليبحث عني، فقد افترضت بأن كل شبكات المحمول قد توقفت، وساقطة اليوم.. وأقنعت نفسي بنفسي بأن ولا واحد منهم ليس معه رصيد كافي ليرن علي، أخرجت من علبة السجائر ، السيجارة الأخيرة، أشعلتها، وأنا في رأسي ألف دندان، وفي صدري ألف سؤال وسؤال..

"أبنائي لا يسألوا عني ..؟!!.. وسبعة عشرة عاماً لم تشفع لي عند زوجتي..؟!! وهل سأظل أهيم على وجهي في الشوارع إلى ما لا نهاية .؟!!.. من جامع لجامع ..؟!!.. ومن حديقة إلى حديقة، وإلى الآن لم يدخل جوفي إلا الماء، والشاي، ودخان السجائر، وغبار الطريق، وعادم السيارات المميت.. وفقط.؟!!.. ولماذا أنا الذي أغادر البيت..؟!.. ولماذا لا يكونون هم مكاني ، في الشارع الآن..؟!!.. ولماذا لم تترك زوجتي البيت وتذهب إلى بيت أبيها..؟!.. ولماذا لم يسألوا عني حتى الآن.؟!!.. ولماذا.؟!!...ولماذا..؟! ... ولماذا..؟!!.. ولماذا..؟!!..

2018 / 6 / 15

****

قصة قصيرة ....

شجرة الجميز العتيقة، والناي الحزين

سبعة أعوامٍ مضت.. وأخباره منقطعة عن القرية.. أُشيع بأنه قُتل.. بعض أقاربه لم يؤمن بموته.. والبعض الآخر قالوا بأنه فُقد مع من فُقد .....

لكنه اليوم عاد، وبالكاد يتذكر بعض أهله، وبعض أصدقائه القدامى، والنذر القليل من الأحداث التي مرت به..... عاد وهو شبه فاقد للذاكرة.....

وكأن عقله حدث فيه خلل ما.. جعله لا يستطيع أن يتذكر أي شيء ، عن حياته الماضية ، اللّٰهُمَّ إلا إذا ذكره من حوله، وعصف بذاكرته ، وهز ذهنه ، فيتذكر .....

سبعة أعوامٍ مضت، والناس في القرية ليس لهم حديث إلا عنه، ولا سيرة إلا سيرته.. وكيف كان الجميع يحبه، لحسن خلقه، وأدبه الجم، مع ابتسامته الجميلة التي لم تفارق محياه، على الدوام ، وجهه البشوش، وطلعته البهيَّة.. وكيف كان لا يردُّ أحداً قصده.. ولم يتأخر مع أحدٍ في أي أمر يطلبه منه.. يرحم الصغير ، ويوقّر الكبير ، فهو رجل شهم، صاحب واجب ، وصاحب صاحبه ، وبرغم قلة ذات اليد إلا أنه لم يسأل الناس إلحافاً ، ولا يرد سائلاً سأله مسألة.. أو قصده في أمر ما.. تراه في الأفراح، والأتراح ، كأنه صاحب الفرح، والواجب ، وتجده كتفاً في كتفٍ مع صاحب المصيبة ، وفي الفرح فهو أهل فرح .....

وكيف كان حبه لـ "مريم" تلك الفتاة البيضاء اليافعة، ذات الثامنة عشر ربيعاً والتي ليس لها مثيل في القرية، في جمالها، وفي أدبها، وكيف رفض أهلها تزويجها له لأنه فقير، ولا يملك من حطام الدنيا شيئاً، إلا بيتاً بناه بالطوب اللبن من طابق واحد صغير يشبه الكوخ، قاطن على مشارف القرية .....

وكيف كان يرفض أن يترك القرية ، ويهاجر مع من هاجر إلى تلك البلاد البعيدة، برغم أنهم حاولوا إغراءه أكثر من مرة، وحاولوا أن يقنعوه أصدقاؤه، بالرحيل معهم ، حيث المال هناك ، والعمل الوفير في تلك البلاد ، إلا أنه كان يرفض رفضاً باتاً، وفضل أن يبقى في بيته، وبجوار حبيبته "مريم" التي أحبها من كل قلبه

كنت أراه كل يوم يجلس تحت الشجرة العتيقة، شجرة الجميزة العجوز التي تعسكر أمام داره، وبيده الناي الذي لا يفارقه، وتكعيبة العنب التي زرعها بيده ، بجوار الدار، والتي كبرت ورعرعت، وتدلَّت أغصانها المثمرة على الطريق.. حتى صارت استراحة جميلة، لكل سائر على الطريق.....

يجلس يعزف على الناي الحزين، أعذب الألحان لحبيبة قلبه " مريم " برغم أنها تزوجت بغيره ، إلا أنه ظل يحبها، ورفض أن يتزوج غيرها .....

ينتظرها كل يوم عند الأصيل، وهي عائدة من الحقل، مع مواشيها، وبيدها العصا تهش بها على الماشية.....

عاد بعد انقطاع أخباره.. وقد تغيرت ملامح وجهه الأسمر، وتغيرت هيئته تماماً، وتغيرت حالته، لحيته طالت، وشاربه تدلَّى لأسفل، شعره غزاه الشيب، وأخذت الحُفر الصغيرة، والتجاعيد تغزو وجهه، بسمته ذهبت، واختفت نضارة وجهه، وحل محلها تكشيرة عريضة، وعيناه التي كانت يشع منها البريق انطفأ البريق، وصارت نظراته تملؤها البلادة، والحيرة ، وربما الخوف من شيءٍ ما .....

طرأت على تصرفاته أحوال غريبة ، وعجيبة في نفس الوقت.. فمثلاً ، يكون جالس في أمان الله، وفجأة، يصرخ، ويسد أذنيه ، ويغلق عينيه ، ويضع يديه فوق رأسه، أو حول رقبته ، وهو يتفصد عرقاً، ويصرخ في فزعٍ شديد، وهو يصم أذنيه، وقد جلس القرفصاء، وربما قام فزعاً ، وأسرع ليختبئ تحت السرير أو في ركن ما في الغرفة ، وقد أطفأ الأنوار جميعها ، وقد انتابته حالة هستيرية، مع الفزع الشديد، ورعب من شيءٍ ما، لا يراه إلا هو.....

مازلت أذكر تفاصيل ذلك اليوم البعيد، الذي كنا فيه صغاراً.. نلهو ، ونلعب، ونستحم في الترعة التي تطل من بعيد على منازلنا الريفية الصغيرة، والتي تمر بجوار شجرة الجميز العجوز أمام دار " عويس " .....

ما زلت أذكره، وهو جالس تحت الشجرة، وبيده الناي الحزين، قُبيل الغروب، حينها سمعنا أزيز الطيران، يمُر من فوق رؤوسنا الصغيرة ، وصوت صفاراتِ الإنذار تدوي من أعلى "وآبور" النور القديم ، لنختبئ في بيوتنا ، وكان الناس في حالة فزع ، وهلع ، وهرج ، ومرج ، وخوفٍ شديد.. يومها

رأيته وهو واقف ثابت مكانه كالجبل ، لم يفزع ، ولم يتزعزع ، ثابت على الأرض في تحدٍ، وإصرار ، يصرخ في الناس، بأن لا يخافوا ، ولا يراعوا ... وأنا واقف بجواره ، أقلده ، وأستمد صلابتي منه ، وهو يقول للناس : ..

ـ لا تخافوا.. لا تخافوا.. دوْل كلاب ، جبناء ...

وما زلت أذكر أيضاً ، يوم وقعت جاموسة حبيبته " مريم " وصراخها على من بنجدها ، ويخرج لها جاموستها من البطَّال ، تلك الجاموسة التي أحضرها لها أهل الخير ، ضمن مشروع " اكفل أرملة ، أو يتيم " فقد تدهور بها الحال ، بعد موت زوجها ، ورفضوا إخوتها أن يعطوها ميراثها من أبيها ، ونصحها أهل الرأي بأن ترفع دعوة عليهم في المحكمة ، لترد حقها بالقانون ، وتأخذ ورثها من الأرض ، التي تركها لهم أبيها ، لكنها رفضت أن تخسر إخوتها من أجل حفنة تراب على حد زعمها ، كما كانت تقول دائماً :

ـ فوَّضت ليك الأمر يا صاحب الأمر ...

وجلست في بيت زوجها الذي رحل عنها ، لتربي أولادها الصغار اليتامى ، ورفضت أن تتزوج من بعده ، ودفنت حبها القديم في صدرها ، برغم جمالها، وبرغم أن تقدم لها " عويس " حبيبها مرة أخرى بعد موت زوجها ، فرفضت أن تبدّي نفسها على أولادها ، برغم أنها تمتلك من الجمال والأنوثة الطاغية ، ما لم تمتلكه كثيرات من نساء القرية ، حتى أن أغلب شباب القرية كان يتمناها لنفسه ، حتى العمدة نفسه عرض عليها الزواج أكثر من مرة ليضمها إلى طابور نساءه ، فكثيراً ما حاول معها ، مرة بالترغيب ،

ومرة باستخدام نفوذه ، وسلطته ، لكنه فشل معها ، وكانت ترفض طلبهم ، بكياسة ، وأدب ، معللة ذلك بأن معها يتامى وتريد أن تربيهم :

ــ أنا هـمكث على الأيتام دول عشان أربيهم ، وأعلمهم أحسن علام ، وأنا لا بفكر ، ولا أنفع للزواج تاني نهائي ..

لا أدري لماذا تحضرني، وبقوة كل تلك التفاصيل البعيدة، وينبعث من جديد في رأسي الآن، ذلك الماضي الجميل ، ولا أدري لماذا يحضر جارنا العزيز الآن في ذهني بوضوح ، ذلك الرجل الطيب ، الشهم.. ربما لأنه عاد ، فعادت معه الذكريات.. أو ربما لأنني بطبعي أحب أن أرجع إلى الماضي بذاكرتي، وأعيش دائما مع ذكرياتي.. لا أدري .....

صورته أمام عيني الآن.. ها هو يجري على الطريق الزراعي.. وكان الوقت ظهيرة ، لنجدة حبيبته "مريم" التي وقعت جاموستها في البطَّال ، وهي تصرخ وتطلب من ينجدها، وبالصدفة المحضة كان يمشي "عويس" على الطريق الزراعي.. ولما سمع صراخ حبيبته "مريم" جري ناحية الصوت، وبعض نفرٍ من أهل القرية معه ، ونزل بهدمته البطال ، أمسك بالحبل، وأعطاه للواقفين على اليابسة ، ليشدوها معاً ، وهو يرفعها لهم بين يديه ، وأنا كنت مع من يشد الحبل

وبعدها بأيام قلائل ، بدأت الحرب مع العدو ، وذهب مع شباب القرية للتجنيد.. وانتهت الحرب ، وألقت بأوزارها الثقيلة ، وانتظر أقاربه عودته.. وكذلك حبيبته " مريم ".. وأهل القرية عاد أغلب من ذهب منهم معه ،

وظل أهل القرية في انتظار دائم ، وطال الانتظار ، ولم يعد جارنا العزيز ، وانقطعت أخباره من حينها أقاربه سألوا عنه رفاقه ، ومن كانوا ذهبوا معه للحرب وعادوا.. وسألوا عنه في كل مكان ، حتى فقدوا الأمل في رجوعه ....

" قالوا بأنه استشهد في المعركة.. مثل كثيرٍ من أقرانه.. واعتبروه شهيد الواجب والوطن.. وأطلقوا عليه اسم البطل الشهيد.. ومنهم من قال: "بل وقع في الأسر وسيعود.. ومنهم من قال : بأنه لم يمت أصلاً ... وقالوا ... وقالوا... ".. وصُنع منه أسطورة.. ونسجت حوله الأساطير..

لكن اليوم عاد ، وحدثت المعجزة.. وفرحت "مريم" لعودته.. وقلعت السواد الذي كانت ترتديه، ولأول مرة منذ توفي زوجها تلبس الملون ، وأهله صنعوا له ليلة لله "فرح" ودُعي أهل القرية جميعاً.. وأجلسوه كما العريس وسطهم.. وراح أهل القرية كلهم يهنئونه على العودة بالسلامة .....

وأخذ يحكي لأقاربه.. ولكل من جاء يسأل عنه ، ويزوره.. ويحدثهم عن كل ما رآه.. وما حدث معه.. وكيف أصيب في المعركة.. وبترت ساقه بشظية من صاروخ وقع بالقرب من تجمعهم.. وهو بين الفينة والفينة، يحمد الله على السلامة، والنجاة.. وهو يقول لهم: كيف نجا من الموت المحقق بأعجوبة، بل بمعجزة إلهية.. وكيف تصدت قواتنا المسلحة للعدو.. وكيف كان طيران العدو يقذف بحمم النار، على أي شيء متحرك أمامه، وكانت أصوات النيران، والمدافع، والقنابل، والإنفجارات تدوي في كل مكان.. وهو يردد دائماً، بافتخار ...

ــ حاربتهم لآخر طلقة في البندقية، حتى نفدت مني الذخيرة، والماء، والطعام الذي معنا ، بعض الجنود من شدة القذف، تاهوا في الصحراء.. وكيف كان العدو يبحث عنهم كالمجنون بالطيارات.. وظللْتُ أنا وبعض الجنود متمترسين في أماكننا واستطعت أنا ومن معي من الجنود، تدمير رتل من دبابات العدو الغاشم ، وحولناها إلى كومة من الفحم، والصفيح المحترق ، وقطعنا إمدادات العدو ، وفرحنا، وكبرنا، وفجأة ، طيران العدو دكّ الموقع على من فيه.. ونحن نقاومهم بكل قوة، حاولنا الاتصال بمركز القيادة ، لكن الإشارة كانت ضعيفة جداً، ومنقطعة

وهنا يتوقف عن الكلام.. ويدخل في شرود طويل.. وقد أخذته غصّة في حلقه.. ودموعه هملت غزيرة تنزل على وجنتيه .....

اقتربت منه ، سلمت عليه.. ذكّرتهُ بنفسي.. عصف ذهنه.. وعصر ذاكرته، فتذكرني أخيراً.. ربّتُ على كتفه.. جلست بجواره.. تحت شجرة الجميز العتيقة هش وبش في وجهي.. تجاذبنا أطراف الحديث.. وفي خضم الكلام معي، لم ينسَ حديثه عن الحرب.. وراح يقص لي بعض ما حدث معه ....

سألته: عن سر تغيبه..؟!.. وانقطاع أخباره عن القرية ، كل هذه السنين..؟!.. وأين كان ..؟!.. ولما لم يعد مع من عادوا ..؟!.. فاعتدل في جلسته.. وقد وضع الناي في حجره.. وأخذ نفساً عميقاً.. وراح يحكي لي ما كان.. وما حدث معه.. وكيف كانوا يضطرون بأن يناموا وسط جثث الجنود الذين قتلوا في المعركة.. عندما كان جنود العدو يبحثون بين الجثث على من نجا، ليُصَفُّوه ،

وفجأة ، صمت.. وأخذ نفساً آخر أعمق من الأول، ونظر إلى الأرض، وراح ينكت بعود كان في يده، برهة، وكأنه يتذكر شيئاً ما قد نساهُ.. ثم واصل حديثه قائلاً:

ــ اقتحم العدو المعسكر الذي كنا مرابطين فيه.. واضطررنا لترك مواقعنا.. وظللنا نسير في الصحراء على غير هدى.. أياماً وليالي، بلا ماء، ولا طعام، حتى أخذنا نتساقط، واحداً تلو الآخر، من شدة الجوع، والعطش، والإعياء، ولم أدرِ إلا وأنا في إحدى الخيام، وسط مجموعة من بدو الصحراء، وقد ألبسوني ثيابهم.. فلما أفقت ، واستردت بعضاً من صحتي.. سألت :

ــ أين أنا ..؟!.. وأين أصدقائي من العساكر..؟!....

فأخبروني بما كان.. وكيف عثروا علي.. وأنا فاقد الوعي ، وفي الرمق الأخير.. فانتزعوني من براثن الموت، والهلاك الذي كاد أن يفتك بي، كما فعل بأصدقائي وكيف أخذوني، وأخفوني عن أعين العدو.. وظللتُ عندهم، كواحدٍ منهم ، حتى برئت ، وشفيت تماماً.. وحتى تمكنوا من إيصالي إلى أقرب نقطة عسكرية.. وتم تسليمي لهم ... و .....

وظل يحكي لي.. وهو يرسل بصره تارةً إلى السماء ، وتارةً أخرى ، نحو الطريق الزراعي ، بمحاذاة الترعة ....

وكأنه يتذكر أمراً ما.. أو ينتظر أمراً ما.. وربما كان يتطلع إلى مقدم حبيبته.. "مريم" حين تكون في طريقها إلى المربط الذي تربط فيه جاموستها .....

وظل يحكي لي حيناً.. ويسكت أخرى.. وظلت أستمع إليه باهتمام.. وترقب.. وأنا أنظر لساقه المبتورة.. والتي عوضوه بها ساقاً صناعية.. أسندها إلى ساق شجرة الجميز العتيقة.. بجوار الناي المصنوع من الغاب....

وصوت المذياع ينبعث من داخل كوخه الصغير... يعلن عن غارة جوية جديدة... وتصدي قواتنا المسلحة، الباسلة لها.. وتكبد العدو الغاشم ... خسائر فادحة في الأرواح والمعدات .....

****

قصة قصيرة

قالتْ، وقلتُ

هي قالت :

ــ "لا أريدك ".. وأنهت الحوار،

وأنا قلت:

ــ "أريدك ".. وطال الانتظار، ثم تفرقنا كل منا في طريق، لكنها قبل أن تتركني، أطفأت الشمس في عيني، وبعثرت النجوم في الماء، وانشق الرتْق، وأخذتْ معها النهار، وأُسدل الستار، وتفرق الجمعُ الذي كان يجمعنا، وصمت صوت القيثار، وفرغ القلم، وجف المداد ...

هذه حكاية قديمة ، ومضت، من سنين كانتْ، وكنتُ، وكُنا.. كانتْ ستكون.. وكنتُ سأكون .. وكنا سنكون .. كانتْ هي ..... وكنتُ أنا ..... وكنا سوياً.....

كانتْ وردة جميلة برية ، وكنتُ أنا البستاني راعي الزهور ، وكنا مؤتلفين، ربما هي تذكر ذلك ، أو ربما لا تذكر، لا يهم ، المهم أنها كانتْ ، وكنتُ، وكنا معاً سنكون..

وكنتُ سأكون وكل ذلك كان منذ بضع سنين .....

اقتربتْ مني، اقتربتُ منها، لا لم تقتربْ مني، ولم أقتربْ منها، لا ربما أنا الذي اقتربتُ منها، وربما هي اقتربتْ مني ، وربما اقتربنا، وربما لم نقتربْ، وربما لم يقترب بعضنا من بعض

وربما بعقلي المريض تخيلتُ ذلك، بأنها اقتربتْ ولم تقتربْ، أنا لا أذكر من اقتربْ أولاً من الآخر لكن الأكيد والمؤكد أن أرواحنا هي التي اقتربتْ من بعض .. وربما لم أنتبه لذلك ...

تذكرت.. أول لقاء جمع بيننا، كان في فصل الربيع، وكانتْ زهرة برية، وأنا أعشق الربيع والزهور والعصافير، والمطر ...

يومها هي قالتْ... وأنا قلتُ... عيناها قالتْ، نبرتها قالتْ، حركاتها، سكناتها، نظراتها قالتْ، مشيتها قالتْ، اهتمامها بي قال، وكل شيء فيها قال، وتكلم، وأنا قلتُ.... وقلتُ.... وقلتُ.... لا، لا، بل هي قالتْ ، وقالتْ كثيراً، وأنا لم أقل شيئاً إطلاقاً، لم أنطق ببنت شفة، ولم أتكلم، وكنتُ أعلم ما تقول، فقط، كنتُ أسمع، ولا أتكلم،

لكن بحثتُ عن لساني لأقول لها شيئاً فلم أجد، ولم يطاوعني إلا أن أنطق بكلمة واحدة وفقط "أنا أريدكِ حبيبتي" وهي قالتْ عيناها " وأنا أريدكَ حبيبي " وابتسمتْ شفتاها، فلم أستطع أن أقول شيئاً بعدها ولم أفعل أكثر من هذا، ثم بحثتُ عن منديلي لأجفف به نزيف العرق، وعن أقرب كرسي لأجلس عليه ... وكنتُ سأسميها مليكتي .. وكانتْ ستسميني حبيبي ،

وصارتْ، وأمستْ، وظلتُ، وباتتْ، وما زالتُ، وما برحتْ، وربما كانتْ، وكنتُ، ومازالتُ، والله أعلم بالنوايا والضمائر وما تخفي الصدور .. كانتْ، وكنتُ، وكُنا، أنا وهي كنا سنكون ....

هذه حكاية قديمة حدثتْ معي من سنين، وما أقوله لكم ليس من الواقع، ولا يمتْ للخيال بصلة ، وقد تكون قصة حقيقة واقعية مئة في المئة، وقد تكون خيالاً في خيال وربما تكون لا هذا ولا ذاك مع أني أؤمن بأن هذا من ذاك وذاك من تلك ..

فاجأتني المفاجأة حين رأيتها عادتْ، وعدتُ حين عادتْ بعد سبع سنين عجاف عادتْ كما كانتْ هي لم تتغير، وربما تغيرتْ، وعادتْ السنين الخوالي، وعادتْ الذكريات ، عادتْ كالشمس لتشرق علينا من جديد، عادتْ وكأن شيئاً لم يكن، أو كان شيئاً وعاد لم يكن شيئاً كان، وكنتُ حين كانتْ، ولا زلتُ ولا زالتْ، وعدتُ أتصبب عرقاً، وأتلعثم أمامها في كلماتي كالطفل الصغير، وعادتْ لتشعل الحرائق في قلبي وعادتْ وعدتُ وعدنا، وعاد الحب يعرش في قلبي وعاد معها الحنين، وراح يخربش في الوتين، وكأني يوم رأيتها ثانية ولدتُ من جديد،

وكانتْ ستكون وكنتُ سأكون وكنا سنكون من سبع سنين، بدأت الحكاية.. تلك كانتْ قصتي معها وهذه هي الحقيقة، وربما كانتْ وكنتُ وكنا سنكون.. لكنها اليوم عادتْ بهيئتها يوم كانت،

وكان من الممكن أن نكون، ولكنّ الممكن شيء والواقع شيء آخر، وكان من الممكن ألَّا تعود ولكنها عادتْ وجاءتْ بكل تفاصيلها يوم كانتْ زهرةً بريَّة .. ورأيتها مرة أخرى، وسمعت صوتها الرخيم فهز كياني ، وسخونةً أمسكت جسدي، وطار عقلي من رأسي .. ولكن قدَّر الله وما شاء الله فعل.

تمت صباح الاثنين 16 / 8 / 2021

****

ثرثرة

لا شيء يأتي من فراغ كما لا شيء ثابت في هذه الحياة كذلك الحوادث والخطوب، وكل شيء جائز وممكن ومحتمل الحدوث في هذه الحياة، والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً، وقديماً قالوا: دوام الحال من المحال .. تلك حقيقة مؤكدة ....

والواقع شيء جميل قطعاً، ولا شك بأن الخيال جميل وصحّي أيضاً، وقد يكون الواقع أجمل من الخيال ألف مرة ، وقد يكون العكس بالعكس أحياناً ، لا أدري .. ربما ، لكن من المؤكد والأكيد والثابت أن كل شيء في هذه الحياة يتغير، كما أن الجديدان يدوران ، ولا ينفكان ...

والكاتب حين يكتب يحلق في فضائه التخيلي الفسيح الرحب الذي لا يحده حد ، ولا سور،

فحين يكتب الكاتب يضع أمامه عالماً موازياً على الأوراق، فقد يكتب قصة حقيقية واقعية،

أو قد يكتب قصة لا تمت إلى الحقيقة أو الواقع بصلة، وربما تكون مزيجاً بين هذا وذاك ...

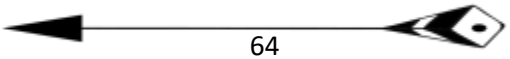

فأنا مثلاً حين أكتب لا أدري حين أكتب إن كان الذي أكتبه واقعاً أو إن كان الواقع الذي أعيش فيه هو الذي يكتبني أم أنا الذي أكتبه، لا أدري...؟!

موقف عربات الأجرة تحت المحطة يعج بالركاب ، وأنا مستعجل دائماً، هكذا طبعي ..

أيقظتني زوجتي كالعادة مبكراً.. ذكرتني بالميعاد فأنا ذاكرتي أصبحت ضعيفة من كثرة الهموم ومشاغل الحياة التي لا تنتهي، أسرعتُ حتى لا أتأخر عن الميعاد ، هيّأتُ نفسي للِّقاء إلهام ،

جهزت أغراضي، وضعتها في حقيبتي، لبست ثياب الخروج، ثم مرقتُ كالسهم نحو الخارج ، صوب الشارع الرئيس الذي ما انفك يعج بالزحام والشوارع الفرعية ينبعج منها الصخب والضجيج وكان الجو حاراً جداً، وكان الوقت صباحاً ...

نحن الآن في غرة شهر أغسطس والشمس فوق الرؤوس، تجلد الناس بكرابيج من الضجر،

موقف العربات بجوار المحطة يعج بالمسافرين، والباعة الجائلون في حركة دائبة لا تنقطع ...

ركبتُ العربة، استرخيتُ على المقعد بجوار النافذة، مكاني المفضل دائماً خلف السائق ،...

بائعة المناديل الورقية الملونة تقترب من نافذة العربة وهي تجر طفلاً صغيراً خلفها وطفلاً آخر أصغر على صدرها، لتعطي علبة مناديل لفتاة تجلس بجواري ...

وثمة شيء في هذه الحياة لا يأتي من فراغ ، نقطة ، ومن أول السطر ...

وجوه المارة الكثيرة لا أعرف منها أحداً، ولا أعرف حتى من أين جاءت ولا ما قصة أصحابها مع المدينة، وجوه غريبة وعجيبة جاءتْ من كل حدب وصوب ملأت الشوارع والطرقات،

ثلاثون عاماً كانت كفيلة بأن تغير كل شيء في المدينة الهادئة لتصبح مدينة خرسانية صاخبة لا تهدأ ولا تنام، ثلاثون عاماً كانت كفيلة بأن تغير كل شيء في المدينة، البيوت، الشوارع،

حتى الوجوه تغيرت، ما عدتُ أعرف منها أحداً، ثلاثون عاماً كانت كفيلة بأن تفعل كل شيء

وتُغير كل شيء في المدينة، وبأن تجمع كل هذه التناقضات والمتناقضات في مكان واحد ...

المكان دائماً ملهمٌ ، وبطل أحياناً في القصص والروايات ، ورأسي تتزاحم فيها الحكايات ، ومليئة بالأفكار وبالتوقعات ، وشمس أغسطس تسيّح الحديد ...

" دعوني أقل لكم بأن الحياة لا تبقى على حال ، فلا الانسان ولا الحيوان ولا النبات ولا حتى الجماد يظل على حاله ، الكل له عللله وأسبابه ومسبباته ومعللاته " ...

وكنت أرْجلُ في الشارع الطويل وأنا فارغ الرأس مصاباً بالسآمة والملل فقط كنت أحاول أن أتفادى العربات والتكاتك، وما أدراك ما التكاتك " عفريت العلبة " تلك المركبة التي صارت ظاهرةً خطيرة وأصابت الشوارع في مكتل، وأصبح يعاني بسببها المجتمع، وأصبح أغلب سائقيها من الشباب العاطل ومدمني المخدرات والأطفال، وما أكثر الجرائم التي ارتُكبتْ بسببها ويظل الوضع على ما هو عليه ما دام لم يوضع قانون يقنِّنه ويضبطه وينظمه، فكم من الحوادث التي ارتكبتْ كان البطل فيها الرئيس هو التوكتوك .....

انتبهتُ على صوت إشعار رسالة ماسنجر من " الواتساب " فجأة ألقيتُ نظرة خاطفة على تلك الفتاة التي تجلس بجواري في العربة ، كانت منهمكة ومنشغلة بتليفونها المحمول "التاتش" نظرة عابرة جعلتني أشعر بالخجل من نفسي، أغمضت عينيَّ، وأدرتُ وجهي إلى الجهة الأخرى

موقف العربات عالمٌ آخر .. عالمٌ جميل رائع مليء بالقصص والحكايات التي فيها إثارة ومتعة وتشويق ، وأنا عن نفسي أعشق هذا المكان بكل تفاصيله ، وأحب أن أذهب إليه من حين لآخر حتى ولو لم أكن غير مسافر ...

أحياناً تربطنا بالأماكن ذكريات جميلة، أو قاسية، وأنا تربطني ذكريات جميلة لا تنسى بالمكان .

" كم من القصص قابلتها في حياتي والتي عشتها وكم من الحكايات التي حدثت هنا معي في هذا المكان وكم من القصص التي مازالت منثورة وملقاة أمامي على الطريق ومبدوره في كل مكان من حولي ومعروضة على الرصيف"..
الفتاة التي بجواري تقترب مني لتفسح المكان لراكب جديد، ورائحة العرق مع العطر النافذ منها تغزوا العربة ، وتريح الأعصاب ...
دقائق معدودة شعرت فيها بسخونة تسري في جسدي، ورعشة غريبة تملكتني، وقشعريرة من نوعٍ ما تتملكني، وأنا لا أدري لماذا حدث هذا معي، وأخيراً أقنعتُ نفسي بأن السخونة والعرق من شدة حرارة الجو فالشمس قوية جداً ، أخرجت منديلاً ورقياً أجفف به نزيف العرق ،
تذكرت جريدةً كانت في يدي، فردتها وجعلتُ منها مروحة " هوّايَة "أهوِّي بها على وجهي الذي جرى عرقه أنهاراً، أخرجتُ علبة سجائري أشعلت واحدة ، ورحت أستدعي ذكرياتي القديمة، ولا أدري لماذا تذكرتها " ح..."
ولماذا هي بالذات، ربما لأن الفتاة التي تجلس بجواري تشبهها ، أو ربما تلك الفتاة التي تعبث في هاتفها وتتجاهلني كما كانت تتجاهلني هي ، أو ربما عطرها الأخَّاذ النافذ الذي تضعه هو الذي ذكَّرني بها، أو ربما لأني قابلتها بعد غياب طويل، أو ربما أنا الذي أردتُ ذلك ، أردتُ استدعائها من الذاكرة ، لا أدري ..

ورحتُ أتخيلها وقد جاءت لتبحث عني ، وتخيلتها وهي واقفة على بعد أمتار مني ، وقد جاءت صدفة ، وتخيلتها وهي تجلس بجواري ، وأنا الذي أتجاهلها وهي تضحك .. و .. و ... و ...

" الخيال شيء صحيّ وجميل ، والخيال قد يكون واقعاً نعيشه ، والواقع كان قبل أن يكون واقعاً كان خيالاً، والواقع والخيال وجهان لعملة واحدة، أو بمعنى آخر، الواقع الذي نعيش فيه قبل أن يكون واقعاً كان خيالاً، فما كان خيالاً بالأمس أصبح حقيقة اليوم، وما هو واقع اليوم كان بالأمس خيالاً، وربما كان بين الحقيقة والخيال شعرة ، وأمور متشابهات وغير متشابهات ، تلك هي جدلية حتمية لا مفر .....

وقصتي هذه قد تكون "حقيقة" وقعت بالفعل وقد تكون خيالاً وقد تكون هي لا هذا ولا ذاك

وربما تكون مزيجاً مختلطاً بين هذا وذاك ....

الفتاة التي تجلس بجواري تتحدث مع فتاة أخرى بصوتٍ منخفض يصلني طنينه ، والسائق يجلس على بعد رمية حجر من عربته في الظل ، وبيده كوباً من الشاي ومبسم الشيشة في فمه والعربة صارت فرناً متقدة وأنا أتَّقي حراة الشمس بيدي وبالجريدة الصفراء ....

يقترب رجل كبير مسن يسأل سائق العربة على المسافة التي ستقطعها السيارة حتى تصل إلى المكان .. فقال له السائق وهو ينظر إليه ضجراً، وعينيه قد مُلئتْ علامات استفهام ولا مبالاة واستفسار واندهاش :

ـ السفر تساهيل يا سعادة البيه .....؟

ـــ ما أنا عارف بس تقريباً كده عشان عندي ميعاد مهم وخايف أتأخر عليه ..

ـ قول ساعتين تلاتة، والعملية تساهيل إن شاء الله تعالى، اتفضل اركب....

ـ .....

قلت الفتاة التي بجواري تذكرني بحبيبتي فهي تشبهها إلى حد كبير، أقصد التي كانت بجواري كانت تشبه حبيبتي التي اكتشفت في النهاية وبعد فترة من الزمن أنها لا تحبني وبأني كنتُ مغفلاً كبيراً وبأن حبي لها كان حباً أعور، من طرف واحد ، لكني أقر وأعترف بأني كنت أحبها حباً جمًّا، وهي كانتْ تعرف ذلك جيداً، وتعرف أيضاً بأني أحبها لدرجة الجنون ولكن للأسف الشديد كان حباً أعرج يمشي على قدم واحدة ، ربما حيائي وخجلي وخوفي من أن أصارحها بحبي فتبتعد عني وتصدمني جعلني أحجم عن أن أبوح لها بمكنون نفسي ومع ذلك في الآخر اعترفت لها بحبي، ومع ذلك رفضتْ هذا الحب ،....

"نحن معشر الكتَّاب حين نكتب، لا نأتي بشيء من الفراغ، نكتب عن ذواتنا، عن دواخلنا عن أحلامنا عن أمانينا، مآسينا، وعن كل ما يؤثر فينا، وعن العالم المحيط بنا ، نكتب لنغير وجه العالم ، ونجعل الحياة للأفضل والأجمل، نكتب يا سادة لنرتاح، نكتب لنترك خلفنا بصمة واضحة وأثراً طيباً في هذه الحياة، نكتب لنحيا حياةً أطول ونطمح للخلود " ....

أذكر في يوم من الأيام تجرأت حاولتُ أن أعترف لها بحبي فكتبت لها خطاباً وحسّنته وجَّملته واخترتُ لها أجمل الكلمات وأفخم العبارات .. قلتُ لها كل شيء، واعترفتُ لها بكل شيء، ووضعتُ لها النقاط على الحروف ووضعته في مظروف وفي قلب الظرف وضعتُ وردةً حمراء وجهزتُ الخطاب "الرسالة " وعندما رأيتها واقفة أمام الباب وانتظرت الأقدام حتى تخف السير، تصنَّعتُ بأنِّي ذاهبٌ لأشتري شيئاً ما من على رأس الشارع فكوَّرتُ الخطاب في يدي وألقيته تحت قدميها داخل الدار وهي تنظر لي وتضحك وسَّعتُ الخطى لكني لمحتها وقد التقطتْ الخطاب بسرعة البرق ثم دخلتْ البيت وأغلقتْ الباب لتقرأه، قضيتُ طلبي وعدتُ مسرعاً أنتظر الرد ، وعقلي قد ذهب كل مذهب ، ساعة من الوقت أمام الباب منتظراً الرد الثواني فيها مرتْ عليّ سنين والدقائق دهورًا، وأخيراً ظهرتْ أمامي وهي تمسك بخطابي، فراح قلبي يطير من الفرح مرة، ومن الخوف مرة، وأخذتُ أشير لها بيدي، وهي تنظر إليَّ وتبتسم ، ثم وفجاءة أمسكت الخطاب ومزَّقته بين يديها إرباً إرباً، نتفاً صغيرة جداً، وألقتْ به في الهواء صوب وجهي وهي تقهقه بصوتٍ عالٍ فحزنتُ حزناً شديداً بل بكيتُ على كسرة قلبي .. سامحها الله ..

أنا أعترف بأني كنتُ جباناً معها وفاشلاً نعم كنتُ فاشلاً وجباناً في نفس الوقت، لأني لم أستطع أن أجعلها تحبني كما أحببتها من كل قلبي، كنتُ جباناً وفاشلاً بدرجة امتياز مع مرتبة القرف ..

أشعر بخيبة أمل .....

يركب الرجل العجوز العربة ، يجلس في المقعد الخلفي وهو يسعل ، أخرجتُ كمامتي من جيبي تحرزاً ، وصرفتُ وجهي عنه، اشتد سُعال الرجل فوجدت نفسي في موقفٍ لا أُحسد عليه ، فكرتُ أن أغير مكاني أو أن أنزل من العربة خوفاً من العدوى، لأن الوباء منتشر والموجة الرابعة من كورونا قد بدأت بالفعل، لكني اكتفيت بأن أُخرج رأسي من النافذة حتى ينتهي الرجل من سعاله، وأخيراً أخرج منديلاً قذف فيه ما أخرجه من جوفه بعيداً عني، أنا دائماً سيئ الحظ

قلتُ قبل، مقعدي المفضل دائماً بجوار السائق، فإن لم يكن ففي المقعد الخلفي بجوار النافذة ،

أخرجتُ هاتفي الخلوي لأتصل بصديق رفض أن يأتي معي ليدلني على الطريق فهو قد جاء إلى هذا المكان أكثر من مرة ويعرف الطريق جيداً بينما أنا أول مرة آتي إلى هنا، رن جرس الهاتف انقطع الاتصال أعدتُ المحاولة تلو الأخرى وانتظرته قليلاً ليرد وفي كل مرة يرن الهاتف دون جدوى حاولتُ أكثر من مرة وفي كل مرة كان التليفون مغلقاً أو غير متاح، شعرتُ بالإحراج، وضعتُ التليفون جانباً من يدي في حقيبتي، ورحتُ أسرحُ بعيداً برأسي، وظل رأسي مفتوح تتزاحم فيه الأفكار، وأنا لا أدري متى ستنتهي تلك الرحلة المتعبة....

((البارحة كنتُ أجلس في البيت لا شيء أفعله سوى الفراغ والملل مع الاكتئاب ، لا شيء إلا القراءة والكتابة والتصفّح عبر شبكة الانترنت،

والفضائيات، أتابع آخر أخبار العالم بكل قلق وتوتر وصاحبة الجلالة الست" كورونا "والفيديوهات المشتعلة بهذا الوباء القاتل ، والحوارات المتعلقة بكيفية الحماية منه والتي يرفعها الأطباء كل يوم عبر الفضائيات والرعب عبر التواصل الاجتماعي، الأطباء والمتخصصين وغير المتخصصين الكل يهري عن هذا الوباء القاتل المدمر كما يقولون ، مع أني أشك في كل ما يقال وما يدور حولي لا لشيء إلا لأنني أعلم أن ساسة العالم كاذبون ، ولا أخفيكم سراً بأني أجلسُ على أعصابي ، وفي حالة توتر وقلق دائم مستمر وخوف شديد على نفسي وعلى كل من أحب بل على العالم كله بأسره...))..

الشمس الحامية تحرق الناس وتشويهم بأشعتها المباشرة، وأنا أخبِّئ وجهي وأداري رأسي بصحيفتي الصفراء القديمة التي أحتفظ بها في حقيبتي والفتاة التي بجواري تثرثر مع صديقتها والعربة تقف تحت الشمس فرن وصاحبها يجلس في الظل والنهار يوشك أن ينتصف وأنا عرقي مرقي، متوتر ومستعجل جداً ..

أخيراً اكتملت السيارة نهض السائق من على القهوة ارتدى سيارته وترك الشيشة من يده بعدما أخذ منها نفساً عميقاً وكأنه يودعها بقبلةٍ أخيرة، سمى الله ، وركب السيارة ، وذلك بعدما ألقى نظرة فاحصة على الإطارات " العجل " أدار المفتاح ، ضغط بنزين، وانطلقت السيارة ...

وأنا أنظر من النافذة نحو الصحراء المترامية الأطراف والتي تكاد تلتصق بالأفق على جانبي الطريق، مساحات شاسعة من الأراضي الصحراوية

المتساوية الممتدة على مرأى البصر، مئات الكيلومترات ليس فيها شيء ينُمُّ عن الحياة اللّهُمَّ إلا بعض المباني البدائية الرائعة الموزعة في المكان وبعض الأشجار المنثورة بطريقة عشوائية هنا وهناك ، ...

أدار السائق مؤشر الراديو على إذاعة القرآن الكريم ، ورحتُ أردد خلف الشيخ بصوتٍ مسموع والعربة تسير في طريقها بسرعة 120 كيلومتر في الساعة بطريقة انسيابية مع أن هناك يافطة معلَّقة فوق السيارة تحث السائق وتنصحه بأن لا تتعدى سرعته الـ 80 كيلو في الساعة فقط لا غير ..

نظرتُ في ساعة يدي كان عقربها يشير إلى الثانية عشر صباحاً ، هززت رأسي ، وابتسمت في نفسي ، وقلت : " ما زال في الوقت متَسع"

لاحظتُ نظرات بعض الركاب وقد انتبهوا للهجتي وثيابي الغريبة عنهم فعرفوا بأنِّي بعيداً عن المدينة التي أنا ذاهب إليها وغريب ..

أحد الركاب فتح حديثاً معي ، مدير سابق على المعاش لإحدى المصالح الحكومية ، تجاوبتُ معه من باب قتل الوقت، ودار حوار طويل بيننا ومتشعب الأطراف في السياسة والاقتصاد والفن والأدب والثقافة .. في البداية ، سألني عن اسمي ..؟.. ومن أين جئتُ ..؟! .. وإلى أين المقصد، ولماذا جئت إلى هنا..؟!.. بطريقة مباحثية ، فأجبت فضوله ،وأخبرته عن كل ما سأل وبأني ما جئت إلى هنا إلا لمهمة رسمية ولأمر هام .. ولمَّا مللتُ منه، وشعرتُ بالتعب أطبقتُ فمي على لساني، وسكتُ ، واكتفيتُ بأن أنظر إليه

من حين لآخر وهو يتحدث إليَّ بحماس عن أمور تافهة، وعن أولاده، وكيف ربَّاهم على الفضيلة ، والأخلاق الحميدة .. و.. و .. و ..

وأنا أهز له رأسي بين الفينة والفينة موهمه بأني أستمع إليه جيداً وباهتمام ومصدقاً على كلامه وموافقاً له، والحقيقة أنه هو في وادٍ وأنا في وادٍ آخر، وعندما هدأت حدة الحوار رحتُ أتجول ببصري في المكان من جديد في محاولة لاستكشافه وفي رأسي أمور كثيرة تدور ، وعندما وصلتُ بالسلامة إلى المكان الذي أنا ذاهب إليه لم أجد فيه أحداً فجلستُ على كرسي كان موضوعاً تحت شجرة هناك ، أشعلتُ سيجارةً ، وأنا أنتظر أحداً يأتي ..

تمت مساء الاثنين 20 / 9 / 2021

****

قصة قصيرة

مذكرات رجل على هامش الحياة

حين يأتي الليل يفردني خمائل أرق، وينثرني شظايا فوق الأوراق، فيتملكني الخوف، وينشب أظافره بداخلي.. يُدخلني في قمقمه، وفي أوهامه، قنينته المسحورة، ثم يرميني في فراغ الكون المتسع... فأراني أطارد أشباحاً، وأنعى عمراً أمسى خريفاً.. وأسرح في أشياءٍ مرت من زمن بعيد، وأحياناً أقرأ، أو تأتيني شهوة الكتابة، فأكتب أشياء عالقة في الذاكرة من زمن غابر.. أعيد قرأتها فتبدو لي تافهة.. ليس لها قيمة تذكر، فأمزقها، وربما أكتفي بتكويرها في يدي، وألقيها بعيداً عني في سلة المهملات.. تراودني نفسي أقوم أفتح تلفازي.. أقلب في الفضائيات.. فأرى وجوهاً قد مجتها.. وسئمتها جميعاً.... بالأمس شاهدت برنامجاً لأحدى الممثلات،"صف ثالث"، أدوارها كلها إغراء ، لا أذكر عملاً شاهدتها فيه، إلا وهي في مشهد ساخن.. فهي لا تقوم إلا بأدوار الإغراء، حتى ولو كان الدور المُسند إليها دوراً ثانوياً، وربما أقحموها في مشهدٍ أو مشهدين لزوم "التحبيشة" حتى في البرنامج الذي كانت فيه، ترتدي فستاناً صارخاً، وشبه عارٍ.. حب الفضول دفعني بأن أبقى على القناة، حتى أشاهد البرنامج للنهاية، لأرى وأسمع ما تقوله للمذيعة،

التي كانت أجرأ منها، في فستانها وفي الكلام، والأسئلة الجريئة التي كانت تطرحها عليها، وذلك من نوعية

ــ تفتكري في حد تحرش بكِ قبل كده ..؟..

وعن أدوار الإغراء التي كانت تؤديها ، وعن حياتها الخاصة ، وعن علاقاتها العاطفية ، وكانت تعرض عليها التقرير تلو التقرير ، وهو عبارة عن أجزاء من أعمالها.. وأقوالها في بعض المناسبات ، وعن رأي المخرجين فيها ..؟.. وما يقول عنها الشارع..؟.. وهي تضحك، وتجيب عن كل هذا بأريحية، وبلا غضاضة ، وبأنها فخورة بكل ما قامت، وما تقوم به من أدوار، وأحياناً تعلل لذلك بقولها "الورق عاوز كده ".. ولم تنس بين الحين والحين، ترفع طرف فستانها الذي يكاد يسقط من على كتفها ، وقد أظهر جزءًا لا بأس به من صدرها، كان من ضمن الأسباب التي جعلتني أتابع البرنامج، برغم كثرة تخلله بالفقرات الإعلانات الطويلة المملة، لكن حرصي على أن أرى وأتابع هذا البرنامج، جعلني أتحمل كل هذه الفقرات المملة، والتي يكاد الأطفال يحفظونها عن ظهر قلب ، ثم أخذت تعرض لها قضايا عامة ، لتبدي رأيها فيها، وفيما تشاهده على الساحة الفنية، والسياسية، والاقتصادية.. إلخ.. فكان عندها إجابات معلبة وجاهزة لكل شيء، وعن أي شيء وكأنها ــ ما شاء الله ــ موسوعة علمية ، تعرف ما لم يعرفه الآخرون.. وهي التي لم تُكمل تعليمها بعد، ولم تحصل على أي شهادات جامعية، فقط مؤهلاتها كل مؤهلاتها أنها ممثلة صف ثالث ، أو ثاني ، وبأنها قامت ببعض عمليات

التجميل العادية، كأغلب النساء والرجال على حد زعمها، لما سألتها المذيعة عن ذلك.. وأيضاً دخلت في إحدى مسابقات الجمال، فحصلت على لقب الوصيفة الأولى لملكة الجمال، في إحدى السنوات الغابرة.. شعرت بالملل يتسرب إلى نفسي، وبالسآمة اعتدلت في جلستي ، قمت، صنعت كوباً من الشاي، وعدت إلى مكاني، أشعلت سيجارة على أريكتي، وأنا في غاية الضيق، والملل.

تذكرت مقولة أحد كتابنا الكبار ، الذين رحلوا عن الحياة ، صفر اليدين كما جاؤوا، برغم أنهم قدموا للإنسانية من عصارة فكرهم من ثقافة، وإبداع ، وفن راقٍ، ولم يحصلوا جزاء ما قدموا مالاً، كما أنهم لم يكونوا في رغدٍ من العيش كهؤلاء، مازالت كلمات أحدهم عالقة في ذهني إلى اليوم.. "من يهز رأسه يضرب عليه بالنعال، ومن يهز وسطه يملأ جيوبه بالمال، أو هكذا قال، " في أحد مقالاته الرائعة

ترحمت على أهل الفكر والرأي، والقلم، والعقول الجبارة النزيهة التي خرجت من الدنيا كما جاءت.. وأسفت على من بقوا منهم في ضنكٍ من العيش والحياة ...

قطع تفكيري فجأة.. صوت أنين ابنتي الصغيرة، وهي تتألم، في الغرفة المجاورة وتجض من شدة المرض، والألم الذي زاد عليها.. فهي لم يتجاوز عمرها الحادي عشر ربيعاً، مصابة باحتقان في اللوز.. مما أفقدها الشهية للأكل فأصيبت بـأنيميا حادة.. ذهبت بها لأكثر من طبيب، وكل منهم

يشخص تشخيص يختلف عن الآخر، ويكتب لها "روشتا " بها قائمة من الأدوية التي تحُش الوسط، وتلتهم راتبي كله أو جله، فأسعار الأدوية مرتفعة كنار.. ودخلي لا يكاد يسدد مصاريف البيت، ولا يغطي مصاريف العلاج.."... قمت، تسحبت بلا صوت ألقيت عليها نظرة فاحصة، فوجدتها تحت الغطاء، تجض من شدة الألم.. فلم أشأ أن أوقظها ، لأنها لم تنم من ليلة أمس، وعدت إلى مكاني ، بعدما أقنعت نفسي، بأن العلاج لم يأخذ وقته بعد.. جلست أتابع البرنامج.. فسمعت المذيعة تتكلم عن أجور الممثلين ، تلك الأجور الفلكية التي يأخذونها، وفجأة سألها عن أجرها في فلمها الأخير ،

ــ إلا بالحق أنتِ أجرك كم ..؟!..

صنت برهة، ثم ضحكت، وهي تشد طرف فستانها ، لتضعه على كتفها، حتى لا يسقط أكثر، نظرت إلى الكاميرا التي أظهرتها ملء الكادر، أخذت نفساً عميقاً، وقد وضعت ساقاً على ساقٍ، ولم تجب بشيء إلا بالتهرب من السؤال، في دعابة سمجة وتحت حجة الخوف من الضرائب، والعين التي تخاف منها وتلاحقها، فهي تؤمن بالعين والحسد.. والأدهى وأمر من كل هذا وذاك.. استقلت أجرها الذي تعدى الحدود ..

شعرت بالملل يتسرب إلى نفسي.. وغصة في حلقي.. والاكتئاب زاد وغطّى، مع خنقة كادت تقتلني.. شعرت بانقباض في صدري، أخذت نفساً عميقاً..

تحاملت على نفسي، تسنّدت على الحائط فتحت الحاسوب قلبت فيه.. لا جديد في المجلدات فدخلت على " الإنترنت "...

"هذا العالم الافتراضي الذي أشبه بالخيال ، يذكرني بالحفلات التنكرية، التي كانت تصنع في الماضي.. "الإنترنت" الذي وصل إلى حد الإدمان، مع كثير من الناس بكل فئاتهم العمرية المختلفة ، أكل عقول ، وعيون الناس... هذا العالم الذي نهرول إليه، هروباً من واقعنا الأليم، ومن عالمنا القاسي، إلى هذا العالم الذي هو أشبه بعالم الأحلام لنعيش فيه بعقولنا، وأرواحنا"...

فتحت برنامج التواصل الاجتماعي "فيس بوك ".. علقت على بعض الأصدقاء.. ثم قمت بتحديث الصفحة.. اقتحمت غرفة الدردشة إحدى الأصدقاء، أرسلت لي رسالة قرأتها، رددت عليها.. تجاوبت معها بعض الوقت.. شعرت بالملل يتسرب إليّ من جديد.. فأنا رجلٌ ملول بطبعي.. أرسلت لها "لايك"، تبعته بوردة حمراء جميلة، ثم استأذنت منها بلطفٍ، وخرجت من غرفة الدردشة ، وسحبت " فيشة " الكمبيوتر.. وقمت تمددت على السرير، بعد ما أطفأت المصباح ، فتحت التلفاز من جديد .... " موجز لأهم وآخر الأنباء "... أنا لم أتابع الأخبار منذ فترة ليست بالقليلة، ضغطت على "الريموت"، بحثاً عن شيء مفيد، أو مفرح، أو حتى مضحك، فقد سئمت كل شيء، فأنا لا أحب نشرات الأخبار، ولا مواقع الصحف، والجرائد.. والمجلات.. لا يعنينني منها إلا صفحات الأدب، والإبداع فقط لا

غير.. لم أتعرف على آخر الأخبار، فأنا لست سياسياً، ولا أحب السياسة، ولا لعبة الكرة ، فقط أحب أن أتطلع في العناوين .....

"زمان كان العالم أحسن حظاً من اليوم، على الأقل لم تكن فيه كل هذه الحروب.. ولا المجاعات.. ولا الأزمات الاقتصادية الطاحنة، ولا كل هذه الأمراض.. لا فقر.. لا مجاعات، ولا كل هذه الأحداث التي تقطّع الأحشاء.. وتجلب للإنسان الضغط، والكآبة، وتفقع المرارة، وتجلب السكر، بلاد دُمرت بأكملها، ودكت على رؤوس أهلها، ومن السبب..؟.. ومن المستفيد..؟.. قطعاً أبحث عن إسرائيل، وأمريكا... "هههههههه".. الاستعمار البغيض ، يطل برأسه من جديد ، يكشف عن وجهه البغيض ، ويكشر عن أنيابه ، الاستعمار يريد أن يعود.. أنا لا أستطيع أن أتحمل كل هذا... ولا يمكن لأعصابي أن ترى وتستحمل كل هذا الدمار، دماء تسيل هنا وهناك، ودول تهدم، وتعرض على الفضائيات. والعالم كله يجلس ويشاهد، وكأن لسان حالهم يقول "مادامت الدماء عربية فلتنزف ولتهدم بيوتهم، ومقدساتهم علي أم رؤوسهم.. وليذهبوا جميعاً إلى الجحيم .."..

أطفأت التلفاز.. فغرقت الغرفة في ظلامٍ دامس.. استرخيت على فراشي، في محاولة يائسة للنوم.. فجاءت الذكريات المؤلمة الموجعة استلمتني هي الأخرى لتجهز عليّ وتكمل على البقية الباقية من عقلي.. وأخذت تؤرقني أكثر فأكثر ، وراحت تسرح وتمرح في مخيلتي ــ كقنابل عنقودية ــ عقلي يكاد يطير مني، وظلت أتقلب على فراشي كالجمر، قمت بمحاولة أخيرة، حتى

أهرب من كل هذا العذاب، دسست راسي في الوسادة، شعرت وكأن ناراً تشب بداخلي، تستعر في قلبي.. وشعرت وكأن بعضي يأكل بعضي، والأفكار كلاب سعرانة راحت تنهش وتجرى، تنهش في رأسي.. والمخاوف من المجهول ترعبني.. وأوهام وظنون تدمر الباقية المتبقية من نفسيتي المنهارة، فبكت، نعم بكيت، بكاءً مريراً، من غير صوتٍ، حتى لا يشعر أو يحس أحداً.. بكيت لا أدري لماذا..؟.. ربما لما يدور حولي.. أو ربما لأن ابنتي مريضة، وليس معي ثمن علاجها الغالي.. أو ربما..... وربما لأن تلك هي عادتي عندما تثقل علي الأحمال، ولا أستطيع أن أتحملها وربما شعوري بالظلم، وإحساسي بالقهر، وربما هناك سبب آخر، ما هو، لا أعرفه ..؟!.. ولا أدريه..؟!.. وربما كل ذلك الأسباب جميعاً.. بكيت كأن لم أبك من قبل، حتى انتحبت، وخارت قواي، وأفرغت كل طاقتي وشحنتي الانفعالية في البكاء.. وفجأة ، سمعت صوت الأذان من بعيد يتهادى يردد ، " الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم "...

قمت من فراشي ، توضأت ، فرشت سجادتي، صليت.. جلست في مكاني ، أذكر الله ، وأدعوه أن يشفي ابنتي المريضة، ويفرجها من عنده، ويرضى عنا، ويحمينا من كل مكروه وسوء .... ثم عدت إلى فراشي، وقد نفضت عن نفسي الهم، والغم، والاكتئاب، وأحسست بأن روحي المطربة قد سكنت، وهدأت بداخلي، وعقلي الذي أوشك على الخبل والجنون استقر في مكانه، وأقنعت نفسي بأن كل هذه مخاوف ، وأوهام ليس لها أي مبرر.. وليس لها أساس من

الصحة ، وأن للكون رب يسيره ويدبره، وكل شيء عنده بقدر، وما يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وكله عنده بمقدار ، وكل مكتوب، برهة ،غفلت عينيّ ، ونمت نوماً عميقاً، كأن لم أنم من قبل ،..

استيقظت على صوت ابنتي، وقد انشق الصبح، وجاءت تمشي في نشاط وحيوية وقد امتلأ الكون بالنور، وأصوات الخلق راحت تملأ الفضاء، قمت من فراشي، قبلتها بين عينيها، وأنا أحاول أن أخفي دموعي من شدة الفرح، وقد ابتسمت في وجهها، لما رأيتها قد قامت من فراش المرض، فتحت النافذة ، لتدخل الشمس في غرفتي التي تطل على الشارع، نظرت في ساعتي، فكانت تشير إلى السابعة صباحاً ارتديت ثيابي في عجل ، حتى لا أتأخر عن عملي ، فتعلقت برقبتي حبيبة قلب بابا تقبلني في نفس، وتسألني بفضول طفوليّ ، وبشقاوتها الجميلة في نفس الوقت :

ــ رايح فين يا بابا ، رايح الشغل ..؟!

ضربت كف بكف.. وهي تقول ببراءة ،

ــ كل يوم شغل ، كل يوم شغل ..؟!.

ابتسمت لها ، وأنا أبحث عن حذائي القديم ، وهي تبحث معي ، حتى عثرنا عليه.. قربته من قدميّ، بعدما مسحته بالفرشاة ، وهي تقول بصوتها العذب الجميل ..

ــ تفضل يا بابا

ــ شكراً يا حبيبتي . ربنا يشفيكِ ويخليكِ لي يا رب،

ــ وأنت كمان يا بابا ، ربنا يخليك لينا وما يحرمناش منك أبداً يا رب

ــ عاوزه حاجة أجيبها لك وأنا جاي معايا ،

ــ عاوزك ترجعلنا بالسلامة يا بابا ، وابقى هات لي حاجة حلوة

ــ حاضر يا روح بابا ، يا للا باي ، بوسا لبابا

ثم رميت بنفسي في نهر الشارع لألحق كي أمضي في دفتر الحضور والانصراف

2018 / 3 / 25

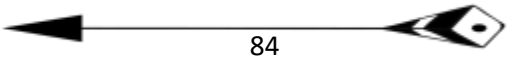

****

قصة قصيرة

الشارع ، وأنا ....

المشاجرات، في شارعنا الطويل الضيق المزدحم بالسكان، لا تنفض، والاشتباكات، لا تنتهي، والمعارك لا تنقطع أبداً على مدار اليوم ...

البارحة لم أستطع النوم من أصواتهم المزعجة المنكرة، قمت مسرعاً أغلقت النوافذ والشبابيك وأطفأتُ كل مصابيح المنزل كي أنام، وذلك بعد يوم عمل شاق طويل ومضنٍ...

وبرغم الجو الحار، والرطوبة العالية القاتلة ، والتعب، والارهاق كاد يقتلني، حاولت أن أنام لكنني لم أُفلح فأصواتهم المزعجة تخترق الجدران والبيبان والحيطان والشبابيك، لا بل تخترق أيضاً الزجاج المصقول لتدخل إلى غرفتي لتفسد عليَّ حياتي ، وتُطيِّر النوم من عيني، وتقلع أم رأسي من مكانها لتلقي بها إلى الجحيم ... شارعنا ظاهرة تحتاج إلى دراسة ...

شارعنا الضيق الطويل جداً نشأ وأُنشئ وبدأ في الظهور منذ ما يقارب من سبعين عاماً تقريباً وذلك مع بداية القرن الماضي، وذلك قبل ما يعرف الناس التخطيط العمراني للمباني الحديثة،

أذكر في الماضي كانت البيوت قليلة جداً، وكانت عبارة عن أكواخ صغيرة بدائية الصنع ، مصنوعة من الطين وأعواد البوص والطوب اللبن، ...

وما زلت أذكر أيضاً مخمرة العجين ، والمخمرة هي عبارة عن " خليط من خرط مخلوط بماء وتبن وأحياناً مع الحمرة وهي بقايا الطوب الأحمر المحروق في الأمينة، ثم يُترك كل هذا يومين أو ثلاثة أيام حتى يصير آسن له رائحة كريهة، ثم يغطس فيه اثنان أو ثلاثة نفر يدعكون هذا الخليط بأرجلهم وأيديهم حتى يصير عجينة طرية، ثم يُصنع منه كتلٌ صغيرة توضع بعضها فوق بعض لتكوِّن ما يسمى بالطوف "...

وكانت الأبواب مصنوعة من جريد النخيل ، والمغلاق خشبة أو عصا غليظة توضع خلف الباب .. وكانت السعادة تملأ البيوت ، وكان الحب يملأ القلوب ...

أما "الأمينة" لمن لم يعرفها فهي كانت عبارة عن " مربع من الطوب اللبن النيّ المصنوع من عجين الأرض والرماد والتبن وأشياء أخرى ، يوضع في قوالب خشبية ، ثم تُترك تحت الشمس حتى تنشف ثم تُرص بارتفاع أربعة أمتار في عرض أربعة مثلهم تقريباً، وبين كل طبقة وأخرى من الطوب المرصوص يوضع القار أو المزيُتْ الأسود وبعض الأخشاب، ويُجعل فيها فتحات صغيرة للتهوية ثم يُشعلون فيها النار ثم يتركونها بضعة أيام وقد تصل إلى خمسة عشر يوماً أحياناً، ثم يتركونها حتى تَصفى وتنطفئ مع نفسها، ثم يبيعون منها الطوب الأحمر"....

وكل ذلك كان قبل أن تصبح القرية مدينة عصرية حديثة مبانيها على أحدث طراز معماري وقبل أن تصبح مركزاً تجارياً كبيراً، ومزاراً سياحياً..

وكانت الناس زمان في الماضي قليلة جداً.. وكانت العائلات معروفة، ومتألفة فيما بينها ، يحترم ويوقر ويقدر بعضهم بعضاً، ويحب بعضهم بعضاً، وكانوا كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى عليه سائر الأعضاء في الفرح والكره وفي الحزن وكان الكل في الشدائد وفي الأفراح والأتراح يداً واحدة مجتمعين ... كانت أياماً جميلة ....

ولم تكن هناك عربات ، ولا شوارع مسفلته .. وكانت الأرض عبارة عن قطعة قماش كبيرة خضراء، وكانت الدنيا واسعة جداً ، والخلاء فسيح ، وكان الهدوء ، وكان الدفء الأسري، والحب ، وكنت لا تسمع إلا أصوات الطيور، والعصافير، والهواء ...

وكانت وسائل المواصلات بدائية وبسيطة، وسائل النقل وقتئذ ــ أعزَّكم الله وعافاكم ــ الخيل والبغال والحمير والجمال، وعربات "الكارو" والحنطور فقط لا غير ...

أذكر وأنا طفل صغير كنت أعي كل هذا، وأعرف وأفهم كل شيء ، ...

أما اليوم الوضع اختلف تماماً، انفجار سكاني رهيب، قنبلة بشرية موقوتة، موجودة في كل مكان حتى في شارعنا الطويل، الناس فيه كثيرة جداً جداً، بحيث لو فُكت بيوته أعني السكان التي تسكن البيوت، سكان الشارع لو أُفرغوا من بيوتهم لملؤوا مدينة كبيرة حديثة..

وقطعة الأرض التي كانت واسعة ومزركشة وجميلة بألوانها البهية المبهجة للعيون السندس الأخضر على الـ طوبي على الترابي، أصبحت اليوم ليست

موجودة، اختفت تماماً وحل محلها عمارات شاهقة وأبراج خرسانية عملاقة، وأصبح الهدوء، وصوت العصافير وحفيف الأشجار والسنابل حين يداعبه الريح انقلب كل ذلك إلى ضجيج ودوشة لا تطاق ...

الأصوات عالية جداً ومرتفعة ومزعجة ولا تنقطع، ولا تخفت ، وأنا أريد أن أنام، والمعركة ما زالت قائمة، ومنصوبة وحامية الوطيس في الشارع، والصراخ والعويل يملأ الأرجاء، وهرج ومرج، وألفاظ نابية تنطلق بين الفينة والفينة، وأنا أريد أن أنام ولم أستطع .. تباً لكم جميعاً ..

وضعت كل الوسائد فوق رأسي في محاولة بائسة يائسة للنوم، ورحت أتقلب على فراشي

وصرفت ذهني بعيداً في أمور سعيدة لعل وعسى وحتى أنام فلم أفلح، استدعيت ذكرياتي القديمة من زمنٍ فات، وذكرياتي مع الشارع وأنا صغير، وتذكرت أبي وأمي، رحمهما الله، فقرأت لهما الفاتحة، وترحمت عليهما، واستدعيت النوم من جديد، لكني لم أستطع من شدة الدوشة، والأصوات العالية المزعجة، والألفاظ النابية.. تباً لكم وألف تب .. سحقاً لكم جميعاً

لو حسبنا مع بعض حسبة بسيطة ، شارع مائة وخمسون متراً تقريباً، به مائة بيت وفي كل بيت ثلاثة أو أربعة أسر ، والأسرة الواحدة عددها في المتوسط خمسة أفراد تقريباً ، أضرب ثلاثة في خمسة والناتج أضربه في مئة ضعف ، أضرب هذا في ذاك ، يطلع الناتج ألف وخمسمائة تقريباً ...

أضرب .. ((3 × 5 = 15)) ثم أضرب ((15 × 100 = 1500)) تصور كل هذا الكم من البشر يسكنون في شارع واحد ضيق طوله مائة وخمسون متراً وعرضه متر ونصف تقريباً..

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، والشارع ما زال مليء بالناس، والمعركة ما زالت منصوبة قائمة وحامية بين الجيران والسبب الأطفال الذين تشاجروا وهم يلعبون .....

"هم هكذا دائماً ما يتشاجرون على أتفه الأسباب فما أن تنفض مشاجرة حتى تنعقد أخرى، ولا تنتهي معركة إلا وتبدأ غيرها، ويتم الاشتباك من جديد، وأحياناً كثيرة تتشعب المشاجرة الواحدة لتصبح معركة متفرعة الأطراف وتكون طاحنة بالأيدي وبالعصي وبالطوب، وربما بالسِنَجْ أحياناً، وقد تمتد المشاجرة لأيام كثيرة، وقد تنفض المعركة بعد ساعات قليلة ، على حسب ، وقد تصل أحياناً إلى مغفر الشرطة، وقد يصطلحوا في النهاية ، وقد لا يتم الصلح، وهكذا دواليك على أتفه الأسباب، كلمة تقال ، أطفال تلعب ، وأحياناً من غير سبب أصلاً .. "

المهم .. والقصد .. والمقصد .. قمت فزعاً من نومي، قمت من فوق سريري، نظرتُ في الساعة، كانت تشير إلى الثانية ونصف صباحاً، فتحتُ النافذة التي تطل على الشارع، طلبت من الأولاد الذين يلعبون ويصيحون تحت الشباك أن يتزحزحوا حبة ويذهبوا بعيداً من تحت الشباك حتى أستطيع أن أنام فأنا

ورائي عمل شاق في الصباح ويتحتم عليَّ النوم ولو بضع ساعات قليلة حتى أتمكن من الصحو مبكراً وإلا لن أستطيع أن أقاوم النهار .....

كثيراً فكرتُ أن أترك لهم الشارع وأهج، وأسكن في مكان بعيد هادئ لكني فشلتُ لعدة أسباب أهمها سببان الأول هو ارتفاع أسعار المباني والعقارات في المدينة التي أسكن فيها، ولا تقل لي اسكن في الريف فأنا لا أستطيع البعاد عن المدينة والمدنية برغم أني أعشق الريف والهدوء الذي فيه وكذلك أهله الطيبين لكن الإنسان ابن بيئته كما يقال، وثاني سبب هو أن في بيتنا الذي أسكن فيه كل ذكرياتي، تربيت فيه، نشأت فيه، وفرحت، وفيه حزنتُ، وفيه ذكرياتي ورائحة أبي وأمي و، و، و، و.. وفيه كل شيءٍ جميل،

كثيراً حاولتْ زوجتي إخراجي منه لكني رفضتُ وقاومتُ بقوة فأنا كالسمك الذي إذا أُخرج من الماء يموت، وكالشجرة العجوز التي إذا نزعوها من مكانها أو أخرجوها من أرضها تموت .. لذا لن أسمح لهم ولا ولم ولن أخرج من بيتي الذي عشتُ فيه كل حياتي حتى الموت فبيتنا هو كل حياتي ، مسقط رأسي ، وسر حياتي فيه ....

نسيتُ أن أذكر لكم وأخبركم بأن بعض الشباب المراهق وبعض الكبار منهم يتعاطون البانجو، والمخدرات بكل أنواعها، يسهرون إلى الفجر في الشارع حتى يصعد الدخان وينتشر وتصل الرائحة الكريهة داخل البيوت، فما أن يأتي الليل إلا ويصاب كل من في الشارع بحالة هيجان شديدة، وصرع من نوع ما وحالة غريبة وعجيبة تتلبسهم، أصوات مترفعة، هياج

شديد ، وهرج ومرج ، ينادون على بعضهم البعض من بعيد يرقصون يغنون ويسهرون حتى الصباح وكل ذلك في الصيف والشتاء، ويفعلون ذلك كل يوم،.....

الأطفال يلعبون تحت الشباك ويتصايحون، وأنا كل يومٍ أطلب منهم الهدوء ولو قليلاً حتى أنام أو ينصرفوا من أمام البيت، ومن عدم اللعب تحت الشباك كذلك، وقليلاً منهم ما يستجيب بل نادراً ما يفعلون ذلك وينصرفوا ، وكثيراً ما أشتبكُ مع ذويهم تارة بالسباب والتنابذ بالألقاب وتارة أخرى بالاشتباك يكون بالأيدي .. المهم ..

ذهب الأطفال بعيداً عن البيت قليلاً وذلك بعد أن نظر لي بعضهم شزراً ، والبعض الآخر راح يرفع صوته أكثر في تحدٍ صارخ لي ومنهم من رماني ببعض الألفاظ النابية.. ثم غابوا عن المكان لكن أصواتهم لم تغب.. حتى الأطفال يقلدون ذويهم في كل شيء، أربعة وعشرون ساعة كل يوم صيفاً وشتاءً يملؤون الشارع كالنمل .. يلعبون ، ويصيحون .

أغلقتُ النافذة مرة أخرى، وعدت إلى مكاني، حاولتُ استدعاء النوم من جديد فلم أفلح، أخذتُ أتقلبُ على فراشي كالكرة وأنا أتحايل على النوم أن يجيئ ولكنه عصاني هو أيضاً، وأبى واستعصى فقمتُ من مكاني ذهبت إلى المطبخ لأصنع لنفسي كوباً من ينسون كمهدئ لأعصابي المتوترة من قلة وعدم النوم وليساعدني على الهدوء والاسترخاء والراحة والنوم أيضاً فلم أجد في المطبخ ينسوناً ولا كركتيه فعدلْتُ عن الفكرة وصنعتُ كوباً من

الشاي على البوتاجاز.. وعدتُ إلى فراشي ، يأتيني من بعيد صوت الأذان، قمتُ، نهضتُ، ضغطتُ مكبس النور أضأتُ الغرفة، فتحتُ النافذة، توضأتُ، وصليتُ الفجر حاضراً، وهم لا يزالون يملؤون الشارع الطويل الضيق، ويعتركون، ثم جلستُ أشرب الشاي، شعرتُ برغبة للكتابة أخرجت من مكتبي ورقةً وقلماً، مسكتُ رأسي بيدي، ورحتُ أكتبُ عن شارعنا الضيق الطويل جداً والذي أنا أسكن وأعيش فيه، والذي أحكي لكم عنه، فيه ناس عادية جداً، وبسيطة جداً، من الطبقة الكادحة وفيه أناسٌ أعوذ بالله منهم شياطينُ الجن تستعيذ بالله منهم ،..

شقشق نور الصباح، نظرتُ في ساعة معصمي ، فإذا هي تشير للسابعة صباحاً، تركتُ ما في يدي، نهضتُ مسرعاً، ارتديت ثياب الخروج، ثم ألقيتُ بنفسي في الشارع بعدما أخذتُ كل أغراضي، ثم وقفت أنتظر على ناصية الشارع أي وسيلة مواصلات تقلُّني وتوصلني للعمل، وأنا يبدو عليَّ الإرهاق، والسهر، وعدم النوم .. سامحهم الله.

تمت الأربعاء 1/ 9 / 2021

****

قصة قصيرة ...

مقطع من نون النسوة

رأيتها ... نعم رأيتها بعد عشرين عاماً ، مرت كالسحاب لم تغير فيها شيئاً.. النظرة.. نفس النظرة.. الخطوة نفس الخطوة.. الضحكة.. القدُّ الجميل.. الحركة المشية.. قصة الشعر.. " المكياج ".. التسريحة الجميلة.. العطر الصارخ.. الفواح.. الـ ..... وكأن شيئاً فيها لم يتغير ....

كل شيءٍ فيها جميل كما هو لم يتغير.. وكأن القدر رتّب لنا هذا اللقاء العابر من بعد ما انقطعت بيننا الأسباب.. ويئست من رؤيتها.. وكدت أنساها نهائياً ....

إلا أني اليوم رأيتها، واقفة أمامي، حقيقة لا خيال.. كما كانت تقف زمان.... في نفس المكان.. بلهفة وشوق، وترقب، لقدومي.. تنظر في ساعتها.. وهي مرتبكة.. متوترة.. قلقة.. وخائفة من أن لا آتي إليها.. في نفس الميعاد.. وفي نفس المكان.. وحين تراني قادماً من بعيد ، تبتسم.. وتقبل عليَّ.. ياه على الزمن الجميل.. لكم هي الدنيا صغيرة جداً حقاً "....

ما انفكت الذاكرة ، الضعيفة عندي أحياناً ، تحتفظ بنسخة واضحة وقوية، تحمل كل تفاصيل حكايتي معها.. وأول يوم التقينا فيه.. مازلت أذكر ذلك اليوم البعيد ....

" التقينا ذات صباح ، على محطة القطار.. وكنت أدرس حينها في الجامعة.. وكانت تعمل في إحدى الإدارات الصحية.. وكانت الدنيا شتاءً.. والشمس ساطعة.. والجو بارد.. والصقيع يغلف الأشياء... لكنه كان يوماً جميلاً ، ومشرقاً.".....

كل شيء مازال كما هو.. كل شيء يحتفظ بعبقه.. وكأن الزمان عاد للوراء عشرون عاماً خلت.. مازلت أذكر ذلك اليوم .....

تجاذبنا أطراف الحديث.. وتحاورنا.. فلسفنا كل شيء.. وسخرنا من كل شيء..

ثم ضحكنا.. ولعبنا معاً.. ولهونا كالأطفال.. دون أن نأبه لأحد.. ولا نألو على شيء.. حتى الذي كان يرانا.. لا يشك للحظة واحدة.. بأننا أقرباء.. أو أحباء ....

أذكر يومها.. قالت لي..: " أنها تعرفني جيداً ، من قبل أن تراني.. وبأنها تعرف كل شيء عني.. حتى أدَقْ التفاصيل عن حياتي الخاصة.. " ....

وقالت أيضا :.. " أنا كنت أتمنى أني أراك وأتعرف عليك من زمان "..

والذي أدهشني حقاً، كانت معلوماتها صحيحة جداً، ودقيقة للغاية.. ذهلتُ لقولها وعبثاً حاولتُ أن أستفسر منها عن مصدر معلوماتها.. وأستوضح الأمر أكثر.. وأردت أن أعرف سر اهتمامها.. ولما كل هذا الاهتمام المبالغ فيه تجاهي .؟!.. فرفضت أن تخبرني.. فقط اكتفت ببسمةٍ ساحرةٍ ، وضعتها

على شفتيها الرائعة.. وفي عينيها بريق يشع ذكاءً ، وعبقرية.. ورعد ، وبرق ، وصواعق قاتلة .....

وبدأت الحكاية من هنا.. وبدأتُ آخذ عليها ، تدرجياً ، وبدأتْ نفسي ترتاح لها..

وعرف حُبها طريقاً إلى قلبي.. الذي كنت قد أغلقته من زمنٍ بعيد.. وكتبت عليه لافتة ببنط عريض.. " مغلق للصيانة والتحسين ".....

وفي ذات يوم ، أراحت يدها في يدي.. وراحت تتسرب بداخلي، شيئاً فشيئاً كإكسير للحياة، وأخذت تتشعب، وتتكاثر، وتنقسم بداخلي، كخلايا بكتيريا إلى ما لا نهاية في كرات دمي السابحة في شراييني ....

وبرغم أني كنت محتاطاً جداً وحذراً.. من أن أقع في شراك الحب.. فالحب في وجهة نظري.. ضعف.. ومذلة ، ومهانة، ما بعدها مهانةٍ.. ولا أحبُ أن أرى نفسي.. في هذه الصورة المذرية ، المهينة، المؤسفة.. وهذا الموقف السخيف.. لذلك كنت أخاف ، وأهرب ، من أي عيون جريئة كانت تقابلني .....

وفلسفتي في الحياة ، وشعاري هو ..

" أن الحب ــ وذلك من وجهة نظري الخاصة طبعاً ــ أكذوبة كبرى.. من صنع الإنسان.. ليبرر بها أغراضه.. ونزواته الحيوانية الدنيئة.. ".....

إلا أني أخيراً وقعت في الشرك، وفي المحظور.. أحببتها.. نعم أحببتها.. وضعفت أمامها.. واستطاعت أن تغزوني بجيوش جمالها ، وأنوثتها الطاغية.. وبجدارة فائقة وراحت تحتل عرش قلبي.. بجرأة تُحسد عليها.. وسقطتْ ـ

على طريقة الواحدة تلو الأخرى ــ كل قلاعي وحصوني المنيعة.. أمام جيوش أنوثتها ، وفتنتها الطاغية.. وراحت تتقدم إلى أبعد نقطة في سويداء القلب، لتعسكر بفتنتها ، في كل كرات دمي.. وتحتل كل كياني ....

أنا في البداية قاومت.. نعم قاومت ، وبكل قوة ، وشراسة المقاتل والمحارب النبيل لكنني وبصراحة شديدة فشلت.. نعم فشلت فشلاً ذريعاً.. وانهزمتُ.. هزيمة نكراء أمام امرأة غير عادية.. ليست ككل النساء.. امرأة قد جمعت فيها السحر والجمال .

وكأن الله قد جمع فيها كل فتنةٍ للنساء.. وكل مكرٍ ودهاءٍ لبنات حواء ...

" تخالها إن رأيتَها.. امرأة غريبة الأطوار، عجيبة امرأة لا تقاوم ، استثنائية، تخلع القلب ، واللب ، بفتنتها ، وخفة ظلها، وسحر جمالها الطاغي ، فهي بجد امرأة تفوق الحد والوصف ــ من وجهة نظري ــ روحها صافية ، جميلة، وجذابة، مرحة ، مثقفة.. تمتلك قدرة فائقة في تحوير الكلام.. وتحويل الحوار في أي اتجاه ذكائها غير عادي، لدرجة أنها كانت تقرأ ما يدور في رأسي من قبل أن أتكلم معها تنتقي كلامها بدقة، وعناية فائقة.. هالتها النورانية.. تتسرب إلى أعماق الأعماق وتنفذ شيئاً فشيئاً ــ كحبات الضوء التي في عينيها، وكعطرها الفواح الأخاذ ــ إلى كل ممرات القلب ، والعقل"....

أنا في البداية.. لم أصرح لها بشيء من ذلك.. أما هي فقد صارحتني بحبها لي.. على الرغم أنها سألتني أكثر من مرةٍ، وكانت تلح علي في كل مرة، إن كنت أحبها أم لا ، ــ أتحبني ..؟! ....

في البداية.. كان السؤال صعب ، بالنسبة لي.. وكان سؤالاً جريئاً مثلها.. وكان مفاجئاً.. وأصعب منه كانت الإجابة ... وكنت أتهرب منه كثيراً ...

وكانت في كل مرة تسألني فيها.. أتصنع أني لم أسمع شيئاً منها.. فتعيد عليَّ السؤال من جديد.. وهي تلح عليَّ ، وتستحلفني أن أجيبها ... حتى جاء اليوم الذي ألقيت فيه عينيّ على الأرض، وصمتُ برهة ، فأعادت عليّ السؤال من جديد وبطريقة أخرى.. تختلف.. ــ أتحبني مثلما أنا أحبك ..؟!..

ثم أمسكتْ بيدي واقتربتْ مني أكثر، حتى أحسست بحرّ أنفاسها ، وهي تلفح وجهي فانهرت.. واعترفتُ لها، وأجبتها بقبلةٍ ساخنة، على خدها التفاح، أودعتها كل مشاعري، فضحكت، ومالت، واعتدلت، وأخذت تطيح بيديها في الهواء.. ورجعت للوراء في انتشاء، ونشوة، حتى كادت تسقط من شدة الانبساط ....

واعترفتُ لها بحبي.. وشرحتُ لها.. لماذا كنت أتهرب منها.. وأسهبت.. وأطنبت وراحت الأيام تمر سريعاً ، وتتوالى.. وكنا نلتقي تقريباً شبه يوميّ.. نتحاور في كل شيءٍ.. ثم نلعب، ونضحك ، ونلهو.. دون أن نأبه لأحدٍ.. ولا نألو على شيء حتى الذي كان يرانا.. لا يشك للحظة واحدة بأننا أقارب .. أو أحباء ....

وأنا تارك لها نفسي.. وقلبي.. لكي تتصرف فيهما كما تشاء.. وراحت تضغط على نقاط الضعف بداخلي ، أزرار مخفية لم يحن الضغط عليها بعد.. وتعزف على أوتاري.. وتضيء بداخلي كل المصابيح المطفأة.. وتفتح كل النوافذ

المغلقة.. وتعبث بكل مفاتيحي.. لتغير كل خرائطي التكوينية.. حتى صرت كالطفل الصغير بين يديها.. تلهو به كما تشاء.. وهو لا يحب غيرها.. ولا يستطيع الاستغناء عنها وهو يحب النوم على صدرها النافر.. حتى جاء اليوم الذي فوجئتُ فيه بأنها كانت تلعب بي.. وبأنها كانت غادره.. خائنة.. تعشق رجلاً آخر غيري.. لا، لا، بل كانت متزوجة برجلٍ آخر ....

وبأنها امرأة مطلقة، وليست عذراء، كما كنت أظن .." يا للهول".. ومعها طفلان وتبحث عن فريسةٍ، كبش فداء ليس إلا.. كي تضرب به طليقها.. وتنتقم منه، وترد له القلم قلمين، والصاع صاعين.. فهو قد خانها ، وتزوج بصديقتها.. وتركها .....

وكانت تخبئ عني كل ذلك.. وحين علمت ذلك ليلتها لم أنم.. وبتُّ بأسوأ ليلةٍ وأشرها وظلْتُ طول الليل، أعاتب نفسي ، وأوبخها.. وأعنفها.. تارة أضحك على نفسي، وتارة أخرى أبكي.. وأهذي.. وأكلم نفسي كالمجنون.... وأخذتُ أفكر، وأفكر، ضارباً أخماساً في أسداسٍ.. حتى مطلع الفجر.. ثم اتخذت قراري النهائي، بيني وبين نفسي.. عزمت على أن أتركها، وأنساها نهائياً.. وأهرب بجلدي منها ، وأخرجها عنوة من كل ذراتي.. ومن بين نبضات قلبي.. وأنفاسي ومن عقلي، ومن كل حياتي ، حتى ولو تطلب الأمر.. بأنها لو لم تخرج إلا بروحي.. لأخرجتها ....

ورحت أبعد عنها ، وأنسلَّ منها.. وأخالف طريقي، حتى لا أراها، وتراني ثانية فأحن إليها.. وأضعف.. وأعود إليها ثانية ....

وأنشأتُ علاقة أخرى مع امرأة غيرها.. لعل وعسى أن أنساها.. فلا يُنسي المرأة إلا امرأة أخرى.. وجربت كل الطرق.. وكل الوسائل الممكنة ، والغير ممكنة حتى أنساها.. وأتخلص من هواها.. لكني فشلت.. نعم.. أعترف.. فشلت ، فهي متغلغلة في كل ذرة من ذرات جسدي ، فقد صارت بالنسبة لي.. كالإدمان المزمن..

أما هي فكانت تطاردني في كل مكان أتواجد فيه حتى أنها كانت تأتيني في اليقظة، وفي المنام ترجوني بأن أسامحها.. فكنت أقاومها، وأهرب منها ، حتى تعبتُ.. ومرضتُ، مرضاً شديداً.. وذهبت لأكثر من طبيب.. وبعد الكشف والإشاعات.. والتحاليل.. قالوا لي :..

ــ لا شيء فيك ، مرضك غير عضوي.. أنت مريض نفسياً ....

عندئذٍ أدركت بأني لا أستطيب البعد عنها، وبأنها قدري المبرم ، والمحتوم .. فقررتُ أن أرجع لها، وأرتبط بها مدى الحياة.. مهما كانت التكلفة ومهما كانت الأسباب، وليكن ما يكون.. وذهبت إليها ، وأخبرتها بذلك ....

في البداية رحبت ، وفرحت جداً.. ثم ما لبثت أياماً حتى غيرت رأيها.. وبدأنا ندخل في دوامات، ومشاكل معقدة.. وبدأت تقابلنا العراقيل.. والشكليات، والرسميات، وصُدمنا بالواقع المرير.. لكن وعلى الرغم أن أهلي رفضوا هذا الارتباط.. واعتبروه عيباً، ومسبة، ولم يوافقوا عليه، أو يباركوه ، إلا أني صممتُ، وقررت، الهرب معها إلى مكان بعيد.. وليكن ما يكون.. وعرضت

عليها الأمر.. في البداية وافقت لدرجة أنها أعطتني قسيمة الطلاق.. وهويتها.. وقالت لي:

ــ " هيا بنا نكتب الكتاب في المحكمة.. أو عند أي محامٍ" وعند الموعد.. خالفت ، ورفضت ، وبشده.. ثم انقطعت عنى أخبارها بعد ذلك.. ولم أرها ثانية.. فأخذت أبحث عنها ، وأفتش في كل مكان كالمجنون.. وأسأل الأهل والجيران.. وأبحث عنها في كل مكان.. وأسأل كل من يعرفها.. لعلي أقف على خبر ، وأعرف مكانها ــ

وفي النهاية عرفت بطريق الصدفة البحتة.. بأنها قد تزوجت ، في بلدٍ بعيدة، من إنسان آخر غيري لا أعرفه ، ولا يعرفني ....

قالوا..: " أغراها بالمال.. وأغدق عليها ببذخ.. فوقعت فيه ، ووقع فيها.. وقالوا ضحكت عليه فتزوجها.. وقالوا ... وقالوا ... وقالوا .....

وأنجبت له ثلاث أطفال.. وأما أولادها من طليقها.. فقد أعطتهم لأبيهم.. وهي التي كانت.. تحارب من أجلهم.. وتتمسك بهم لدرجة الجنون.. قد تخلت عنهم " وتخلت عني أنا أيضاً.. وبكل سهولة ويسر.. وأبت أن تكون لي.. وكانت لغيري..

وها هي اليوم، واقفة أمامي.. تكلمني، وأكلمها، بشحمها ولحمها، لم تتغير.. ولم يغير الزمان فيها شيء، نفس النظرة.. الضحكات.. الساحرة.. بريق العينين نفس الوقفة المشية.. الـ .....

ودار بيننا حوار مقتضب.. وقصير جداً.. وراحت تسألني عن حالي، وأحوالي وعن أخباري.. وكيف كانت حياتي بعدها.. وإن كنت قد تزوجت أم لا.. و.. و...

كل هذا أمام مرأى ومسمع من الناس.. وكأن الزمن قد عاد إلى الوراء عشرين عاماً.. وكأن كل شيء لم يكن.. وهي تقف تكلمني.. ولا تخشى من أحد.. ولا تألو على شيء، وأنا واقف أمامها.. غير مصدق بأني رأيتها مرة أخرى.. وعقلي.. وقلبي.. وروحي.. انطلقوا يسبحوا في الفضاء بعيداً.. وكدت أطير في الهواء.. لفرط سعادتي بلقائها.. ونسيت المكان.. ونسيت الزمان.. ونسيت الذي كان.. حتى أني نسيت نفسي.. و .....

تمت 2004/3/1

****

قصة قصيرة

وللصمت لغة

"1"

خلف المسافات البعيدة.. أهرب.. أختبئ.. أخاف.. من لا شيء.. أتقيأ أبعاضي ..الموهنة.. فتتناثر.. قطعة قطعة.. أفرك أيامي بين يدي.. أزروها صوب اليم.. فتنبت عشباً.. تنبت كلأً.. وسنابل خضراء... لا تأكلها السنون.. اليابسات ....

" 2 "

حين جردني الريح.. أشرأبت حيتان جوعى.. اسْتَهَمُوا.. وهم يعتركون.. والنهر الباكي.. خلف الظلام يمد يديه.. لينتزع مني الشوارع.. والواجهات.. وكل حانات.. ومقعد شاغر في الطائرة.. التي ستقلني في المساء ....

" 3 "

تحت جدار البنفسج.. تتوقد ناراً.. فتشتعل كل الرؤى القاحلة.. وترتل بعضاً من النبوءات.. ثم تعود وحيداً.. تجلس في انطواء.. تدهسك الدهشة.. وعيون مسافرة ....

" 4 "

طائر الشوك.. اتَّئد.. وقعي.. لصوتي المبحوح.. أأعياك التَّرْحال.. أغاريدك يكللها الندى.. والمدى شدا.. يعبق هذا الكون الفسيح.. وحيد أنت.. يراودك البحر.. فمدّ له يَداً.. وسخيمةُ ملح في الرجوع ودموع.. وهديل اليمامات صار فحيح.. وأناشيدك.. جراح نَكْئا فالنزف حتى آخر خيطٍ ..أو آخر حرفٍ لهذا الخريف .....

****

الكاتب في سطور

* الاسم / علي السيد محمد حزين
* واسم الشهرة / علي حزين
* تاريخ الميلاد / 8 / 8 / 1967
* المؤهل / ليسانس أصول الدين والدعوة الإسلامية بأسيوط
* شعبة / الحديث وعلومه .
* يعمل / إمام وخطيب بالأوقاف المصرية
* العنوان / ساحل طهطا / سوهاج
* عضو عامل في نادي أدب طهطا
* عضو مركزي / محاضر مركزي سوهاج ..
* عضو عامل لشعراء العامية المصرية.
* كاتب.. وقاص .. وروائي .. وشاعر
* دعي للعديد من المؤتمرات الأدبية.
* شارك في ندوات المجلس الأعلى للثقافة
* منها " المؤتمر الأدبي الخامس عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي، بالوادي الجديد " الخطاب الثقافي وسط الصعيد (الواقع والمستقبل) 3/ 3/ 2015
*مؤتمر أدباء إقليم وسط الصعيد الثقافي بسوهاج لعام ــ 2016 " المؤسسات الثقافية والحراك المجتمعي "

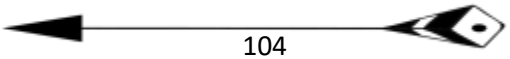

* ومهرجان القصة القصيرة الأول بسوهاج 26 / 11 / 2017 / أجيال .. وإبداع دورة القاص القدير الأستاذ / محمد عبد المطلب

* مؤتمر نادي القصة السادس بأسيوط " القهر والاستبداد في سرديات كتاب الصعيد" دورة الأديب الراحل " محمود البدري ـ 7 / 12 / 2017

* مؤتمر اليوم الواحد بمحافظة سوهاج ... " تجليات الإبداع الجديد في سوهاج " 3 / ابريل / 2019 ...

* نشر أعماله في العديد من الدوريات والجرائد والمجلات الأدبية المصرية علي سبيل المثال جريدة " الجمهورية ـ والأهرام المسائي ـ وروزليوسف ــ واليوم السابع ــ وجريدة المساء ـ وأخبار اليوم ــ مجلة الحوار ــ ومجلة أقلام " وغير ذلك

*شارك في كثير من ندوات المجلس الأعلى للثقافة

* كرم بشهادة من " مؤسسة أسرار الأسبوع " في إحدى جولاتها الرائعة في قصر ثقافة سوهاج مساء يوم الاربعاء 8 / 2 / 2017 .. والتي يرئس مجلس إدارتها الشاعر الكبير // محمد سليم الديب

*تناولت بعض أعماله ضمن "رسالة ماجستير" للقصة القصيرة في سوهاج للأستاذ الباحث // السيد محمد علي // ابن سوهاج وقد أشرف على رسالته الأستاذ الدكتور // محمد عبد الحكيم // "جامعة أسيوط ــ كلية الآداب ــ قسم اللغة العربية ــ الدارسات العليا "

* نشر عملة ضمن كتاب الجمهورية 50 قصة قصيرة في يونيه 2000
* نشرت أعماله بالصفحات والمجلات والمواقع الأدبية التي تتصل بعالم الفضاء الإلكتروني ــ مثل موقع فيتو ، والمنار الدولية ، والمجلة الجزائرية الثقافية ، وصدى الفصول ، ومجلة المصباح دروب أدبية ، وغير ذلك الكثير ،
*له خمسة مجموعات قصصية مطبوعة ــ وديوانان شعر
1 ــ " دخان الشتاء" من الهيئة العامة لقصور الثقافة عام 1999 م
2 ــ " وحفيف السنابل "عن فجر اليوم للطباعة والنشر عام 2004
3ــ " أشياء دائماً تحدث "عن فجر اليوم للطباعة والنشر عام 2004 م
4 ــ اعترافات أنثى بريئة عن ديوان العرب للنشر والتوزيع عام 2021 م
* 5 ــ مقام سيدنا الولي عن ديوان العرب للنشر والتوزيع عام 2021 م
* 6 ــ (الرصاصة الأخيرة) و (عندما يبكي القمر) عن ديوان العرب للنشر والتوزيع عام 2021 م
*عندما يبكي القمر عن ديوان العرب للنشر والتوزيع عام 2021 م
*وفاز بالمركز الأول مرتين علي التوالي في مسابقات أدبية لنادي أدب طهطا .. ما بين عام / 1997 إلى عام 2000 م
*وله تحت الطبع ـ مجموعتان قصصيتان "غرفة رقم (5)" و" بورترية
* تحت الطبع ــ روايتان 1 ــ " إجازة " ... 2 ــ " إيراد "

* تحت الطبع ــ ديوان "ولسه بحلم" عامي " تغريدات صغيرة " فصحى
*للمراسلة ــ ساحل طهطا ـ حارة العبد ــ سوهاج
*البريد الإلكتروني :
alielsaeed472@yahoo.com
*للمراسلة ــ ساحل طهطا ـ حارة العبد ــ سوهاج
تليفون محمول (01017863675)
تليفون منزل أرضي 4761104 مفتاح (093)093476110

****

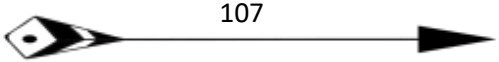

محتويات الكتاب

إهداء 5

نتوءات 6

البغل والحمار مع الذئب، والثعلب المكار 12

"البيضة والحجر "... كلاكيت ثاني مرة 20

الجدار 30

المجنون 34

العقوق 44

شجرة الجميز العتيقة ، والناي الحزين 51

قالتْ، وقلتُ 60

ثرثرة 64

مذكرات رجل على هامش الحياة 76

الشارع ، وأنا 85

مقطع من نون النسوة 93

وللصمت لغة 102

الكاتب في سطور 104

محتويات الكتاب 108

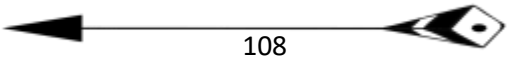

تم بحمد اللّه

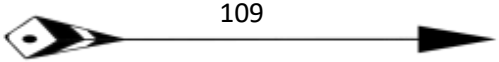

مجموعة قصصية

المجنون

علي حزين

الطبعة الأولى
1443 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com